عطشان يا صبايا

الكتـــــاب	عطشان يا صبايا / جلال عابدين
المؤلـــــف	عابدين، جلال
النــــــوع	القصص العربية
تصميم الغلاف	جيهان متولي
إخراج داخلي	بثينة فرج
الطبعـــــــة	الأولى/ القاهرة ٢٠١١
عدد الصفحات	١٠٤ صفحة
المقـــــاس	٢٠×١٤
تدمـــــــك	
	١- القصص العربية

صرح للنشر والتوزيع



فكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ)
برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني	darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني	www.dar-sarh.com
رقـــم الإيـــداع	٢٠١٠/٢٣٩٩١
الترقيــم الدولـــي	978-977-6382-52-7

ديوي ٨١٣

عطشان يا صبايا

رواية

تأليف

جلال عابدين



الإهـداء

إلى

ملعب طفولتي، ومرتع صباي، بلدتي..

«شبين القناطر»، التي ألهمتني هذه الرواية.

جلال عابدين

(١)

لم يزل كمال عزّ الدين يذكر طفولته المبكرة حينما كان يطل من شباك منزل الأسرة في كفر الشُّرَفا، حين كان يتنفس رائحة البلح (الرُّطَب) المختلطة بتراب الأرض المبللة برطوبة الماء، الذي كان أهل كفر الشُّرَفا يرشُّونه أمام دورهم جلبًا لبعض النسمات الرخوة التي كانت تستعصي عليهم في شهر سبتمبر من كل عام؛ حيث يبدأ موسم جني البلح، الذي يمثل بالنسبة لهم موسم خير وبركة، كما أنه أيضًا موسم للزيجات والأفراح التي تعمّ كفر الشرفا؛ حيث كان كمال وشقيقته الصغرى صابرين يندسَّين بين أهل الفرح والمدعوّين الذين يطلقون الأغاني والأهازيج، كانا يشاركان فيها ويرددان كلامًا لا يفهمان كثيرًا معناه مع المحتفلين، خاصة عندما تصل تلك الأغنيات إلى ذروتها، وتُطلَق الزغاريد كعاصفة مدويّة تختلط بأصوات الطلقات النارية من كل حاملي البنادق القديمة والـ(فِرْفِر) الذي لا تحمل ماسورته إلا طلقة واحدة احتفالًا واحتفاءً بشيء لا يفهمه، حينما تحمل بعض النسوة نوعًا من المناديل ناصعة البياض والملطخة بلون أحمر قانٍ تضعنها فوق رؤوسهن وهن يزغردن ويتراقصن ويطلقن الأغنيات التي لم يكن كمال يحفظها حتى الآن.. «حلوة يا بلحة يا مقعمَّة.. شرَّفتي اخواتك

الأربعة».. ولم تكد هذه الأغنية تنتهي حتى تبدأ أخرى تقول: «الحمص جوهر في الصندوق»، ثم تليها أغنية أخرى أكثر حماسةً تقول: «قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى»... وتظل النسوة ترقصن بهذه المحارم حتى يصيبهن الإعياء، حيث تتسلّل الواحدة بعد الأخرى إلى دارها بعد أن تسلِّم وثيقة الشرف الحمراء إلى أهل العروس؛ ليجترَّ الجميع تفاصيل ليلة الفرح من جديد.

ولما كانت هذه المحارم وتلك الأغنيات وهذا الهرج والمرج لا يفهم كمال عز الدين وأخته صابرين سببًا وجيهًا له، فقد حاول كمال أن يجد لدى أبيه الحاج«علي عزّالدين» تفسيرًا لتلك المحارم الملطخة باللون الأحمر القاني التي تحتفي بها النساء، إلا أنه بفطرته الطفولية استشعر أنه سيوقع أباه في حرج هو في غنًى عنه؛ لذلك فقد ابتلع السؤال قبل أن يقف على طرف لسانه، وقد صدق حدسه في استشعار ذلك الحرج حينما تجاسرت أخته صابرين وسألت أمّها الحاجة «فاطمة» نفس السؤال؛ حيث احمرّ وجه الأم، وحاولت أن تخفي ابتسامة نسائية ملغِزة قائلة: «ما تستعجليش يا صابرين.. بكره تكبري وتبقي عروسة وتفهمي كل حاجة».. وبعدها تغرق الأم في قهقهة عالية لا يدري إلا الله وحده إلى أين قد وصل مداها.

***

(٢)

يعود كمال عز الدين من مدرسته الابتدائية مبكّرًا كعادته كل يوم خميس ليجد أمه تقوم بطهو نوع معين من الطعام على الكانون، يشمّ رائحته من بعيد، حيث يدرك من رائحته التي يعرفها جيدًا أنه محشو الكرنب الذي يحبه، حيث ينظر إلى أمه نظرة لها مغزى، فتقول له باسمة وهي تدسّ بعضًا من حطب القطن في فوّهة الكانون: «دقيقة واحدة يا كمال يا ابني».. وترفع الحاجة فاطمة غطاء (الحَلّة) الكبير، ويعجب كمال من أن أمه في كل مرة لا تستعين بقطعة من القماش حتى لا يصيبها حرارة الغطاء، ومن طول ما اعتاد كمال على ذلك لم تعد هذه المسالة المحيرة له محلّ سؤال؛ حيث تتركّز بؤرة شعور كمال في أصابع المحشو الملتهبة التي راحت أمه تلتقطها بأطراف أصابعها، فيحاول تقليدها، ولكنه لا ينجح في ذلك نظرًا لشدة حرارتها، حيث يدخل أبوه الحاج علي عز الدين وقد علقت بملابسه بعض أوبار ونُدَف القطن الذي ابتاعه من الفلاحين في الصباح؛ حيث يتتبعه بطيبته المفرطة الـ«واد» عزت عز الدين، أحد بسطاء وفقراء العائلة، والذي كان يتحدّث عن

انتسابه إلى عائلة عز الدين في زهوٍ شديد، عندما يعرِّف بنفسه في فخار، حيث كان عزت يعاون أباه في هذه التجارة، محمَّلًا بعرجونين ضخمين ممتلئين عن آخرهما بالبلح الأحمر والرُّطب على حد سواء؛ حيث يقطف الحاج علي عزّالدين ثمرتين من هذا البلح ويمسحهما في (كُمّ) معطفه ويعطيهما لكمال قائلًا: كل سنة وأنتم طيبين، إحنا جمعنا البلح النهارده.

وبعدها يسرع كمال إلى الشباك عندما يتناهى إلى سمعه ضحكات البنات، ليشاهد موكبًا أو مهرجانًا اعتاد عليه في كل عام في مثل هذا الوقت من السنة؛ ليجد سربًا من الفتيات الصغيرات، وهن يسرن كعادتهن في بطءٍ شديد مشية الإوزّة، وقد باعدت كل بنت منهن ما بين قدميها في حذر شديد، وقد رفعن جلابيبهن بأطراف أصابعهن، ولم يستطع كمال أن يكتم ضحكة عالية حينما وجد سربًا من الإوز يحيط بهولاء البنات ويسير بنفس الطريقة، ولكن الذي لم يفهمه أنه وجد أخته صابرين تصاحب تلك الفتيات وتسير معهن بنفس الطريقة، فيُصرع كمال ويصيح: «الحقي يا أمه.. صابرين أختي ماشية مع البنات أهِه».

وهنا تنتفض الأم من مجلسها أمام الكانون لتنظر عبر النافذة، لتجد صابرين تقلد هؤلاء البنات؛ فتصرخ كأن عقربًا قد لدغها: «يا دي

الفضحية!! بت يا صابرين.. ارجعي يا مقصوفة الرقبة.. والنبي لاوريكي».

وتعود (مقصوفة الرقبة) إلى الدار لتبدأ كعادتها ودون حرج في سؤال أمها: «هُمّه بيعملوا كده ليه يامّه؟» وتصمت الأم، وتضيف صابرين في بلاهة: «هيه دي لعبة جديدة يامّه؟».

وهنا يتراءى لكمال وصابرين أن هناك مناطق مُحرّمة ومزروعة بالألغام لا يجب أن يقتربا منها أو يفهماها، وهي تمثل بالنسبة لأمه وأبيه سلكًا شائكًا وهاوية سحيقة ومنطقة محظورة، من يقترب منها سوف يعرّض نفسه للتهلكة، وأصابعه للنيران.

***

(٣)

ظلت الأسئلة تنمو وتتوالد في صدرَيْ كل من كمال عز الدين وشقيقته الصغرى صابرين، فكل تساؤل صغير يؤدي إلى تساؤل أكبر، دون أن يجدا إجابةً شافيةً أو غيرَ شافيةٍ لكل هذه التساؤلات، فهذه المحارم الملطَّخة بألوان حمراء قانية ما أسبابها، وما هو سر الاحتفاء بها، وتلك البنات الشاحبات اللاتي يباعدن بين أقدامهن ويمشين مشية الإوزّة في مواسم البلح من كل عام، ماذا وراءهن؟ ولماذا تسرن هكذا؟ كل منهما يبحث عن إجابة لتلك التساؤلات ولا من مجيب، وأخيرًا وجد كمال عز الدين ضالته المنشودة في شكري ابن الشيخ عبد الشكور إمام وخطيب المسجد الكبير بكفر الشرفا، يذهب إليه الناس مستفسرين عما استشكل عليهم من أمور الدين والدنيا، فأجاب بـ: المحارم الملطخة باللون الأحمر القاني هي في الحقيقة ملطَّخة بالدم الأحمر الذي تنزفه العروس من موضع عفَّتها على يد العريس الغشيم وأم حسن الداية؛ لكي يعرف جميع أهل كفر الشرفا أن العروس ما زلت بكرًا عذراء لم يمسها بشر قبل عريسها المغوار، ولذلك فإن هذا النزيف

الـدموي الـذي يعلـو تلـك المحـارم مـصدر فخـر للعـروس ولأهلهـا، ولذلك كان من حق النساء أن يجأرن بالغناء: «حلوة يا بلحة يا مقمَّعة.. شرفتي اخواتك الأربعة».. وتلك البنات اللاتي تمـشين مـشية الإوزة في مواسـم الـبلح مـن كـل عـام، فـإنهن مختتنـات، أو «مِطَّـاهرات»، وذلـك بقصد تخفيف أو تقليل الإحساس الأنثوي في موضع العفة أيـضًا، منعًـا للفوران الذي قد يـصيب البنـات بعـد بلـوغهن، وهـذا يعنـي باختـصار التقليل من أنوثة الأنثى، مـن بـاب الحـذر، ومـن قبيـل الاحتيـاط، وقـد يتمثَّلون في ذلك بما كان يقوم به المحاربون في العصور الوسطى، عنـدما كـانوا يحيطـون نـساءهم بحـزام العفـة حتـى لا يقـربهن الرجـال عنـدما يذهبون إلى الحرب، وهذا يعني أن موضع العفـة في المـرأة قـد استُهدِف مرّتين؛ الأولى قبل بلوغها، والثانية عند زواجها.

***

(٤)

هكذا ترسَّبت في وجدان كمال عز الدين كل قيم وعادات وتقاليد وأخلاقيات «كفر الشرفا»، ولم يكن يملك في هذه السن الصغيرة معايير العلم والمعرفة والخبرة، التي تمكّنه من تقييم كل هذه الأعراف.

ولعل هذه المساحة البيضاء أو الناصعة البياض التي لم تكن تسمح لكمال عز الدين بأن يكوِّن رأيًا بالسلب والإيجاب نحو كل ما يعيشه ويمارسه أهالي كفر الشرفا، جعلته لا يستطيع أن يكوّن رأيًا معيّنًا تجاه ما يجري حوله.. إلى أن وقعت تلك الحادثة التي هزّت كفر الشرفا بأكمله، حين استيقظت القرية كلها على نبأ العثور على جُثة هانم «بنت الغازيَّة» على سطح مياه الـ(ريَّاح)، دون أن يعرف أحد من سكان كفر الشرفا السبب الحقيقي وراء غرق أو قتل هانم «بنت صبيحة الغازيَّة»، وراحت الشرطة ومن ورائها النيابة العامة تعمل جاهدة على اكتشاف ذلك السر الدفين، حيث اكتشف الطب الشرعي أن هانم «بنت الغازية» لم تكن عذراء، وأنها قد وضعت مولودًا حديثًا، وأنها قد ماتت خنقًا، ثم تم إلقاء جثتها في مياه الريّاح بعد خنقها.

واتجهت الشكوك إلى حمُّودة العاقل عمدة كفر الشرفا، خصوصًا بعد أن قدم مجهولٌ شكوًى يتهم فيها عمدة كفر الشرفا بأنه وراء قتل

هانم «بنت الغازية» بعد أن حملت منه سفاحًا خوفًا من الفضيحة، وعلى ضوء التحريات التي أجرتها الشرطة، علمت أن خفير العمدة الخصوصي سعداوي أبو الليف هو مقدِّم هذه الشكوى المجهولة، نظرًا لأن الحب قد جمع بينه وبين هانم «بنت الغازية» التي كانت تعمل خادمة في منزل العمدة، ولولا الذي حدث بينها وبين العمدة لكان الخفير سعداوي قد أتم زواجه من هانم، خصوصًا بعد فورة الحب التي كانت تجمع بينهما.

حاولت الشرطة أن تبحث عن الطفل الذي وضعته هانم «بنت الغازية» في كل مكان دون أن تعثر له على أثر، حتى إنها فتّشت في كل ركن من قاع الريَّاح الذي ضم جثة هانم دون فائدة.

اتجه فريق البحث الجنائي إلى تضييق الخناق على العمدة وحاشيته، كما عملت على مراقبة التليفون الخاص به؛ ليعلموا أن هذا الطفل قد أُودِع سرًّا لدى حماة العمدة «عقيلة هانم» أم زوجته «سنية هانم شلبي» بالقاهرة، حيث تمت مداهمة منزل الحماة، والعثور على الطفل لديها، ولكن سنية هانم شلبي وزوجها عمدة الكفر حمودة العاقل ادعيا أن هذا الطفل ابنهما، وقدَّما شهادة ميلاد تثبت أن الطفل ينتسب إليهما، ولكن اتضح كذب هذا الادعاء أيضًا؛ حيث أثبت الطب الشرعي أن زوجة العمدة عاقر، وأنها قد بلغت الخمسين من عمرها، وأنها قد فاتها سن

الإنجاب، حيث تم إلقاء القبض على العمدة وزوجته بتهمة ادعاء أبوّتها كذبًا لوليد ابن الغازيّة، وقتل هانم بنت الغازية حتى يتخلص منها العمدة، ليسهل لنفسه ادعاء بنوّة الطفل، خصوصًا وأن هانم قد هددت العمدة بإفشاء سر اعتدائه عليها إن لم يتزوّجها، وذلك طبقًا لشهادة الخفير الخصوصي للعمدة.

أسرع العمدة باللجوء إلى صديقه الحاج علي عز الدين تاجر الأقطان المعروف، حتى يرسل لشقيقه المحامي الشهير زكي عزّالدين ليترافع عنه هذه القضية، فيلبي المحامي الشهير هذه الدعوة؛ نظرًا للعلاقات الوطيدة التي تربط أيضًا بينه بين العمدة، حيث ينجح الأستاذ زكي عز الدين المحامي في تبرئه العمدة وزوجته من تهمة خطف الطفل وادعاء بنوّته، حيث أثبت أن ذلك تم بدافع الشفقة وحماية هانم من الفضيحة، ونظرًا لأن الأب كان مجهولًا، أمّا ما تمّ بشأن قتل هانم وإلقائها في الترعة، فإنه لم يثبت بالدليل القاطع أن العمدة كان وراء هذه الجريمة.

ورغم كل هذه الأحداث المتلاحقة في قصة مقتل هانم.. فقد كان هناك تساؤل واحد كبير يلحّ على كمال عز الدين.. هل هانم بنت الغازية تم ختانها أم لا؟.. ولكن للأسف لم يجد كمال من يجيبه على هذا السؤال!!!

***

(٥)

انتهز الأستاذ زكي عز الدين المحامي الشهير فرصة انتصاره في انتزاع البراءة للعمدة وزوجته في هذه القضية الخطيرة ليقض بعضًا من الوقت بدوَّار أخيه، مصطحبًا معه زوجته أبلة سميحة السلاموني ناظرة المدرسة الإعدادية، وابنتهما الوحيدة منال التي كانت في عمر صابرين ابنة عمها، وأصغر من كمال بحوالي سنتين.

وهنا يقترح الحاج علي عز الدين على شقيقه المحامي الكبير أن ينتهز هذه الفرصة لكي تقوم أم حسن الداية بتختين كل من منال وصابرين، وخصوصًا أن موسم البلح لم ينته بعد، ولكن المحامي الشهير و(حضرة الناظرة) يرفضان ذلك بشدة، وينددان بهذا التختين، ولكن الحاج علي عز الدين لم يقنع برأيهما، حيث استدعى أم حسن الداية لكي تختن صابرين، وذلك حتى تدرك موسم البلح قبل أن يمضي.

تتوثّق العلاقة بين كمال وابنة عمّه منال، حيث ينظر إليها على أنها نموذج فريد لما يجب أن تكون عليه بنت الذوات والأنثى النموذجية،

سواء في ملابسها التي تخالف ملابس كل بنات كفر الشرفا، وكذلك في تعلمها اللغات، وأيضًا في اقتحامها وشجاعتها في أن تخوض موضوعات يخشى هو بذكورته أن يخوض فيها، مثل موضوع الختان الذي تناولته بموضوعية وجرأة شديدة يحسدها عليها الرجال، ولتهاجم عملية الختان ببكارة وبراءة وفطرة شديدة، دون أن تخدش الحياء أو تتجاوز الخطوط الحمراء في تناولها للموضوع، ولكن بالرغم من إعجاب كمال عز الدين وانبهاره بشخصية منال ابنة عمه، يبرز من مكمنه سؤاله الكبير.. هل صحيح أن منال ستظل بدون تختين؟

***

اطمأن حمودة العاقل عمدة كفر الشرفا، وزوجته سنية هانم شلبي إلى الحكم الذي صدر لصالحهما بالبراءة من مقتل هانم بنت صبيحة الغازية، واستراحا أيضًا إلى أن وليد ابن هانم قد عاد إلى رعايتهما، على أن تستخرج له شهادة ميلاد جديدة تنسب أمومته إلى هانم التي رحلت عن الدنيا، واسم أب وهمي آخر هو وحيد محمود دهشان.

ولكن تحدث المفاجأة حينما تعود صبيحة الغازية التي كانت قد هجرت كفر الشرفا فرارًا من بطش الشقي سيد المِفَتَّح الذي كان

يستغلها ويفرض عليها الإتاوات المستمرة، وقد أجبرها على الزواج منه بقصد التمكن من استغلالها، كما كان يواصل ضربها وإهانتها أمام ابنتها، وقد حاولت مرارًا أن تجعله يكف عن أذاها دون فائدة، حتى إنه لم يرضخ لمَّا طالبه العمدة بكف اعتدائه على زوجته أو تطليقها دون فائدة، ففضلت أن تهرب من كفر الشرفا كلها بعد أن عهدت بابنتها إلى العمدة لتخدم في بيته وتكون تحت رعايته، حتى تدبِّر أمرها.

تعود صبيحة الغازية إلى كفر الشرفا من جديد، وهي تصر على الانتقام ممن قتل ابنتها هانم، وتتجه شبهاتها إلى الشقي سيد المفتح الذي لا يتورع عن قتل أمه وأبيه في سبيل الحصول على المال؛ حتى يمكن أن ينفق منه على جلب المخدرات التي أدمنها ولم يكن يستطيع أن يعيش بدونها، وفي نفس الوقت تعتقد أن سيد المفتح قد قام بقتل ابنتها انتقامًا من هروبها منه، خصوصًا وأن هانم كانت ابنة زوج آخر انفصلت عنه صبيحة قبل الزواج من المفتح.

لم يكن سيد المفتح يصدّق عينيه عندما رأى زوجته تعود إليه، حيث راح يبثّها أشواقه وهيامه وافتقاده لها طوال السنوات الخمس التي هربت فيها منه، وقد سال لعابه أكثر عندما وجدها تلبس الكثير من

الأساور الذهبية في كلتا يديها، وأراد أن يحتفل بعودة صبيحة الغازية إليه، فأوعزت إليه بأن يشتري زجاجة من الخمر ليحتسياها معًا فأفهمها أن لديه زجاجة كاملة من الخمر قد اشتراها من المركز في الأسبوع الماضي احتفالًا ببراءة حضرة العمدة والست سنية حرمه.

راح سيد المفتح يدخن الحشيش بشراهة، كما راح يعبّ من الخمر الكثير، حتى كاد أن يفقد وعيه تمامًا، في الوقت نفسه راحت صبيحة تستدرجه في الكلام حتى اعترف أخيرًا بأنه هو الذي قتل ابنتها هانم بإيعاز من زوجة العمدة؛ حتى يخلو لها الجو، حيث إن العمدة قد اعتدى على هانم وحملت منه سفاحًا، ولما كانت سنية هانم زوجة العمدة عاقرًا، فقد قرر العمدة أن يتزوج من هانم طمعًا في أن تنجب له الولد ليرث العمودية من بعده، ولما أنجبت هانم الولد قررت زوجة العمدة أن تقتل هانم لتنفرد بالعمدة والولد الذي أنجبته هانم، ولما استفزته صبيحة وذكرت له أنه في حالة سكر ولا يدري ماذا يقول، أكد لها ذلك، وأنه هو القاتل، وأنه قد دفن مصوغاتها والمال الذي تحتفظ به في ركن قريب من الساقية المهجورة، وأنه مستعد أن يأتي بكل ذلك في صباح اليوم التالي.

***

(٧)

ذهب سيد المفتح إلى المكان الذي دفن فيه ما يخص هانم من مال وحلي؛ ليجد الشرطة في انتظاره، وليدلي باعترافات كاملة حول مقتل هانم بنت الغازية، ليتم القبض من جديد على العمدة وزوجته؛ حيث يتم محاكمة الجميع، ويتم الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على سيد المفتح، وبعشر سنوات سجن لزوجة العمدة، وبخمس سنوات أخرى على حمودة العاقل عمدة كفر الشرفا، وتنتقل رعاية وليد الدهشان إلى جدته صبيحة الغازية.

لم يشغل كمال عز الدين نفسه كثيرًا بأن أباه الحاج علي عزّ الدين قد تم اختياره عمدة لكفر الشرفا بعد انحسار العمدة القديم، وانتقال مهام البيت الأبيض إلى دوارهم، ولكن السؤال الخالد الذي كان يفرض نفسه بإلحاح على كمال عز الدين.. هل صبيحة الغازية قد اختتنت كسائر نساء كفر الشرفا.. أم أنه تم استثناؤها من ذلك لأنها غازية؟!!!

***

(٨)

لعله في مواسم البلح تحدث أشياء لا تحدث في المواسم الأخرى.. فهذا هو موسم البلح الذي أتى بعد حوالي ٢٥ عامًا من ميلاد كمال عز الدين، ما زالت تصاحبه نفس الطقوس السرمدية من تهذيب وتأديب مواطن العفة لكل بنات كفر الشرفا، وما زال في نفس الوقت يحدث التزاوج بين الأشياء.. والشيء الذي هو متأكد منه أنه قد أجريت مراسم ختانه على يد الأسطى إبراهيم حلاق القرية.. والشيء الذي هو متأكد منه أيضًا هو ختان شقيقته صابرين بعد ذلك بقليل، وها هي الآن قد أصبحت مثل تمثال شمعي أبيض تُزفّ إلى عريسها «البقف» سلمان الزناتي، الذي لا يدري عن الدنيا وعروسه شيئًا، إلا أنه قد حصل على دبلوم الصنايع بشق الأنفس، وأنه موعود بميراث ماكينة الطحين التي يديرها لحساب أبيه بعد عمر طويل.. أما عروسه صابرين فقد حصلت على دبلوم التجارة بطلوع الروح أيضًا، وليس المطلوب بأعز من الطالب.

وبدون أن يدري تمتد عينا كمال عز الدين إلى «السنيورة» منال، كما اعتاد أن يسمّيها، والتي ترافق العروس صابرين كظلها لتعدل لها طرحة الزفاف من وقت لآخر، بعد أن قامت بتجهيز العروس بمكياج متقن، والعناية بها من رأسها حتى القدم بشكل نال استحسان وتقدير الآخرين من النساء والرجال على حد سواء.. فهذا عمها الحاج علي عزالدين والد العروس يقول: «عقبال ليلتك يا عروسة».. وهذه أمه تقول: «والله من غيرك يا منال يا بنتي كنا دفعنا للبلّانة الشيء الفلاني».. ولم يعجب كمال ولا منال هذا التعليق، ونظرت إليه كأنها تستنجد به لينقذها من هذه الـ(طوبة) الطائشة.. أمّا أبلة مديحة الناظرة.. فحاولت أن تغير الموضوع فتقول: «منال ما عملتش غير الواجب لصابرين أختها يا حاجة فاطمة».. وأضاف عمه الأستاذ زكي عز الدين المحامي الشهير: «طبعًا أختها وأكثر من أختها كمان.. عقبال الدكتور كمال أما يكمل نص دينه هوَّ كمان».. وبعفويّة شديدة ترد الحاجة فاطمة قائلة: «والعروسة جاهزة.. هوَّ حيلاقي أحسن من منال بنت عمه فين؟»

وعندئذ يتبادل كل من منال وكمال نظرة خاطفة خجلى، وتحاول منال أن تتلهَّى بحديث مفتعل مع العروس، بينما يهز كمال رأسه في

حركة شبه بلهاء يمينًا ويسارًا، ويحاول أن يعدل من وضع رباط العنق، تعبيرًا عن الخجل الذي يحاصره، وهنا أيضًا لم تستطع منال أن تمنع نفسها من المقارنة بين عريسها المرتقب الدكتور كمال عز الدين بنمطيته وتحفّظه الدائم معها في الإيماءة والحركة والتعبير واختيار ملابسه، فهو لم يحاول أن يتقرَّب إليها مطلقًا، رغم أنها بفطرتها الأنثوية تحس بأنه يُكنّ لها بركانًا من الحب والعاطفة، ولكنه لا يريد أن يعبر لها عن هذا العشق، وكأنها تتمثّله حين يقول: «لأن ده عيب وما يصحّش يا بنت عمي». وتقارن بينه وبين زميلها «الداخلي عثمان الداخلي»، تلك الشخصية الصعيدية التي تتمتع بكل السمات الحضارية، فهو يشارك في أنشطة الكلية من شِعر وتمثيل وموسيقى وندوات، وصاحب رؤية نقدية من الفن والحياة، وملابسه بسيطة ولكنها أنيقة.. وهو لا يخجل من أن يصرح بمشاعره ويصرخ بها في كل مكان، وخصوصًا إعلانه عن حبه لها دون خوف أو خجل أو مرواغة.

***

(٩)

هـذه صـابرين قـد انتقلـت إلى دار زوجهـا، حيـث دخلـت مـع «البقف» إلى إحدى الحجرات، ثم تبعتها أم حسن الداية التي دخلت خلفهما، وبمجرد أن أغلقت أم حسن باب الغرفة بإحكام، حتى راحت النسوة وبعض الرجال يدقون الباب متعجلين دماء الذبيحة، ووسط هذا الصخب وذاك الضجيج، تصدر صرخة عالية يعرف كمال صوت صاحبتها جيدًا، إنه صوت شقيقته صابرين وليس أحدًا غيرها، حيث ينتاب كمال رعشة تسيطر على رأسه وجميع أطرافه، وتصدر منه دون أن يدري صرخة ممزوجة بالألم والحسرة، حين يصرخ: آه.. ويغلي الدم في رأسه ونافوخه ويهم بكسر الباب، ليدرك أخته صابرين ويحميها من سكين الجزار، وينقذها من ذلك الوحش الذي اغتصبها؛ لأنها بكل تأكيد لم تكن راضية عن هذه الطريقة التي اغتيلت بها عذريتها رغمًا عنها، وهنا تخرج أم حسن الداية وهي تحمل دماء الذبيحة التي لطخت بها تلك المحارم.. لتبدأ رقصة الثيران الهائجة وتلتف حوله النساء راقصات.. وليبدأن أهازيج الذبح المقدس.. ويعرف في هذه اللحظة

فقـط.. مـا تعنيـه تلـك النـسوة المخمـورات.. مـن «البلحـة المقمَّعـة».. و«الحمص والصندوق».. ولماذا يتعشّى أبـوه بعـد إهـدار هـذه الـدماء؛ لتلقـي أحـداهن محرمـة ملطخـة بالـدم فـوق وجهـه ليـصرخ في شـجن أسطوري: لا لا لا... ثم يسرع هاربًا ليلقي بنفسه في الريّاح.

***

(١٠)

عادت منال من كفر الشرفا، لتدخل إلى غرفتها المزدانة ببعض صور النجوم المصريين والعرب والأجانب، وبعض كُتب القانون، وفي الجهة الأخرى من مكتبها توجد بعض الدواوين الشعرية لنزار قباني وبعض روايات يوسف إدريس، حيث تتناول لنزار قباني ديوانًا تلقي منه بعض الأبيات، ثم تلقيه برقة على مكتبها، ثم تمتد يدها إلى أحد شرائط الكاسيت وتضعه في جهاز الكاسيت الملقى على جانب من جوانب المكتب، لتسمع قصيدة شعرية بصوت تغلب عليه اللكنة الصعيدية حيث يقول:

وما كنت أدري
بأني سألقاك يومًا
سأهواك يومًا
فتأتين لي مطرًا موسميًّا
يبلل أوراقي اليابسات
يهدهد أحلامي المتعبات

فـــــتزهــــو ذاتـــــــي

وتخضــر فـــي داخلي أمنياتي[1]

تمتد يدها في رِقّة ولطف لتغلق الكاسيت ثم تفرد ذراعيها في الهواء كأنها تريد أن تعانق من لا تعرفه، وهي تهمس لنفسها: «يا سلام عليك يا واد - في لهجة صعيدية - يا داخلي عثمان الداخلي.. شعرك يجنن بصحيح».. ثم تستلقي على السرير في حلم طويل.

وتأخذ هذه المشاعر الناعمة منال من جديد لتقارن بين الداخلي زميلها في كلية الحقوق، الذي تجد فيه نموذج المثقف العصري.. وابن عمها الدكتور كمال عز الدين ترى فيه أنه رجلٌ مغلق لا يعرف من الدنيا إلا كتب الدراسة بكلية الطبّ، وهدفه الأسمى في أن يصبح طبيبًا مشهورًا وأستاذًا بكلية الطب، وصاحب عيادة لها مكانتها يُشار إليها بالبنان، وهذا ما جعلها تنظر إلى د. كمال عز الدين ابن عمها على أنه قد أحاط نفسه بسياج من القدسية العلمية، بغضّ النظر عن التعبير عن مشاعره العاطفية والاجتماعية، مما حوَّله في نظرها إلى تمثال شمعي أخرس، وليس إلى حبيب تحلم به وتتمنّاه.

***

---

[1] من شعر المؤلف.

(١١)

لم يكد الدكتور كمال عز الدين يحصل على بكالوريوس الطب بتفوّق، حتى اصطحب والده الحاج علي عز الدين وأمه الحاجة فاطمة رمضان، ليخطب ابنة عمه؛ حيث سعد الجميع بخروج الدكتور كمال عن صمته الأبدي ليخطب ابنة عمه منال، ولكن صُدم الجميع برفض تلك الزيجة على أساس أن كمال ابن عمها لا يمثل لها إلا الأخ العزيز الغالي، الذي لا يمكن أن تتصوّر أن يكون زوجًا لها بأي حال من الأحوال.

وهنا تصادر منال على حلم أبيها المحامي الشهير الذي كان يعلق آمالًا كبيرة على هذه الزيجة، خاصة أنه لم ينجب سوى ابنته الوحيدة منال، والتي كان يتمنى أن يكون كمال ابن عمها زوجًا لها؛ ليكون بالنسبة لها الزوج والأخ، ويكون بالنسبة له ولزوجته زوجًا للابنة الغالية منال، وفي نفس الوقت يكون ابنًا لهما يشدّ من أزرهما ويرعى مصالحهما ومصالح منال، وخصوصًا أنه طبيب متفوّق وناجح وينتظره مستقبل مرموق.

وأصيب الدكتور كمال عز الدين مع أبيه وأمه بنفس خيبة الأمل التي مَنِي بها عمه وزوجته، وراح الحاج علي عز الدين وزوجته يجرّان أذيال الألم والحسرة عائدين إلى كفر الشرفا.

كما عاد الدكتور كمال عز الدين مكتويًا بسهام الرفض وأشواك التخاذل، وقد صمم أن يسلك طريقه الذي رسمه لنفسه بحدة وضراوة أكثر من ذي قبل؛ ليحصل على درجة الماجستير في الجراحة.. وليسأل نفسه سؤاله الخالد من جديد: لماذا لم تختتن منال ابنة عمي حتى الآن؟

***

(١٢)

هـذه هـي منـال.. وهـذا هـو الـداخلي.. ينتهيـان مـن دراسـة كليـة الحقوق بجامعة القاهرة.. ويحصل كل منهما على ليسانس الحقوق، وقـد جاءت ساعة الفراق، ليعود الداخلي إلى الأقصر وأسرته البسيطة، حيث يعمـل أبـوه عـثمان الـداخلي محـصِّلًا عـلى قطـار الـصعيد، وتعمـل أمـه «عطيات» مثل معظم الصعيديات ربة بيت ترعى زوجها وشقيقته ثريًّا الحاصلة علة دبلوم التجارة وتعمـل بمحـل لتجـارة الأنتيكـات، وأخـاه الأكـبر شـحات الـذي يعمـل مرشـدًا سياحيًّا بمدينـة الأقـصر، والـذي صمم على عدم الزواج قبل أن يتخرّج شقيقه الداخلي من كلية الحقوق؛ ليعين شقيقه ووالده في تدبير نفقات الأسرة، حتى ينتهي شقيقه الداخلي من الدراسة.

وها هو الداخلي يجهز نفسه للسفر إلى الأقصر ليبحث عـن عمـل، ويقـول لـشقيقه: «شـكرًا يـا أخـي شـحات، الآن فلتتـزوج يـا أخـي».. ويتحامـل عـلى نفـسه كثـيرًا لـيعلن لحلمـه المـستحيل منـال بكـل ذلـك، ويعتذر لها ويصرخ بأنها الحب الوحيـد الـذي امـتلأت بـه رئتـاه، ولكـن

عوزه الاجتماعي والمادي يحول دون أن يجرؤ على أن يحلم بها، أو أن يتزوج منها، ولكنها تثنيه عن عزمه على السفر، وتعمل على إقناع أبيها الأستاذ زكي عز الدين المحامي الشهير، ليسمح للداخلي بأن يعمل كمحام تحت التمرين بمكتبه؛ فيوافق على ذلك إكرامًا لمنال، كما عمل الأستاذ زكي عز الدين أيضًا على تخصيص مكتب فخم لابنته؛ حتى يؤهلها لإدارة مكتبه من بعده، خصوصًا وأن حالته الصحية قد ساءت نسبيًّا بعدما رفضت الزواج من ابن عمها الدكتور كمال عز الدين.

***

(١٣)

ترسَّبت في وجدان الدكتور كمال عز الدين عقدتان؛ أما الأولى فقد سيطرت بداخله وتحت جلده وفي الدماء التي تصرخ في شرايينه رغبة مدمرة لا يستشعر لهيبها في أن ينتقم من منال ابنة عمه ومن كل نساء الأرض في أعز ما يملكن من شعور بالأنوثة، وأداء الوظائف الأنثوية التي وهبها الله لكل نساء الأرض ليعمر هذا الكون، فقرر أن يختزل بعضًا من هذا الجزء الكامن في موضع العفة تهذيبًا وتعذيبًا وتأديبًا وإصلاحًا من وجهة نظره، وإرضاءً للنزعة الانتقامية التي استقرت دون أن يدري في رئتيه ودمه وسائر أعضائه، فاشتهر بعد ذلك بأنه من الأطبّاء القلائل الذين يستقطعون أو يستأصِلون هذا الجزء بمهارة؛ فقصدته النسوة بقصد إجراء هذه العلمية لبناتهن، وذاع صيته في ذلك، ومن الغريب والمضحك في نفس الوقت، أنه كان يرفض إجراء عمليات الختان للرجال، ولعله قد استقر في وجدانه أيضًا أن هذا نوع من الانتقام من كل الرجال الذين قد يتقدم أحدهم للزواج من منال، فيصبح الرجل بالتالي شبه عاجز عن أداء وظيفته في المتعة والإنجاب.

أما ما اتجه إليه الطبيب كمال عز الدين من الناحية الأخرى، فإنه اتجاه إيجابي لجأ فيه إلى نوع من الإبدال والإعلاء لقدراته العلمية، لتعويض ما ناله من خسارة معنوية وعاطفية تتمثل في رفض منال من الزواج منه، وهنا اجتهد كمال كثيرًا حتى حصل على ماجستير الجراحة، الذي أهله للترقية بجدارة من درجة معيد بقسم الجراحة العامة بكلية الطب بجامعة القاهرة إلى درجة مدرس مساعد بنفس الكلية، أملًا في الحصول على الدكتوراه.

***

(١٤)

ظل نجم الداخلي عثمان يصعد تدريجيًّا بمكتب الأستاذ زكي عز الدين المحامي، خاصة عندما أثبت كفاءته ونشاطه ونجاحه في بعض القضايا التي تولَّاها، مما أكسبه تقديرًا واحترامًا من الأستاذ الكبير، وخصوصًا بعد أن سوَّى مشاكله المالية مع والده وأسرته بالأقصر، وكان لكل هذه العوامل أثرها في نمو علاقة الحب المتبادلة بينه وبين منال زميلته في مكتب المحاماة الذي يملكه والدها الأستاذ زكي عز الدين المحامي الشهير، مما شجعه على أن يتقدم ذاك الإنسان البسيط والذي ينتمي إلى أسرة رقيقة الحال، بطلب الزواج من الأستاذة منال المحامية وابنة ولي نعمته المحامي الكبير، وبالرغم من أن منال لم تجد مفرًّا من إعلان حبها لزميلها الداخلي، إلا أن والدها قد رفض هذه الزيجة بإصرار وعنف؛ نظرًا للفوارق الاجتماعية والمادية بين العائلتين، وذلك خلافًا لما تراه أمها، التي رأت أن تنزل على رغبة ابنتها منال في أن تزوّجها بمن تحب، ولكن المحامي الشهير ازداد إصراره على الرفض، وعمل على طرد الداخلي من العمل بالمكتب، على أمل أن يستطيع أن يثني ابنته منال عن رفضها الزواج من ابن عمها الدكتور كمال عز الدين، ولكن منال تزداد عنادًا وترفض هذا الزواج، وهي تمنِّي نفسها بأن تتزوج بمن تحب مهما كان الثمن.

وحينما أغلق الباب في وجه منال والداخلي، ووجدا أن حبهما أصبح تحت الحصار، لم يجدا خلاصًا لهما إلا أن يلوذا بالأستاذ الروائي ثروت العناني، هذا الإنسان المثقف، والأديب الواعي؛ ليستشيراه فيما يجب أن يفعلاه، وكيف يمكنهما أن يزيلا هذه الأسوار الشائكة، فما كان من الأستاذ ثروت العناني - الذي يعمل رائدًا لندوة فضفضة التي ينتميان إليها - إلا أن استطاع بعلاقاته أن يلحق الداخلي - والذي كان الأستاذ ثروت يعجب بالداخلي كشاعر موهوب، استطاع بأن يلحقه بالعمل كأحد أفراد الأمن بأحد الأندية الشهيرة، ووعد بأن يتوسط لدى الأستاذ زكي عز الدين المحامي لإتمام هذه الزيجة، إلا أن المحامي الشهير يزداد إصرارًا على رفض الداخلي كزوج لابنته مهما كانت الأسباب، ولما كان لكل فعل رد فعل، فقد تعاطف الأستاذ ثروت العناني، وصمم على أن يجد حلًّا لهذين العاشقين اللذين زاد إصرارهما على الزواج، وصمم الداخلي على أن يتزوج من منال مهما كانت المعوقات، ولكن منال ترفض لأكثر من سبب إتمام هذه الزيجة رغم حبها الجارف والعنيف للداخلي، وهنا يقترح الأستاذ ثروت العناني بأن يتزوج العاشقان عرفيًّا حيث يضعا المحامي الشهير - بعد أن تهدأ ثورته - أمام الأمر الواقع، ويجبرانه على مباركة هذا الزواج.

***

(١٥)

في الوقت الذي تزداد فيه حدة مرض السكر والضغط على الأستاذ زكي عز الدين المحامي، تتزوج منال عرفيًّا من الداخلي دون أن يدري أبوها المحامي الشهير من أمر ذلك شيئًا، وفي نفس الوقت يتألق نجم الدكتور كمال عز الدين ماديًّا وعلميًّا، أما من الناحية المادية فقد راحت عيادته تدر عليه دخلًا ماديًّا جيدًا، وخصوصًا بعد أن اشتهر بمهارته في إجراء عمليات الختان للبنات، وفي نفس الوقت راح يجهز للحصول على درجة الدكتوراه التي اقترح لها موضوعًا يتعلق بتدريس عمليات الختان ضمن منهج الجراحة العامة بكلية الطب، ولكنه يصدم عندما يرفض موضوع هذه الرسالة المتعلق بختان البنات من مجالس القسم والكلية والجامعة، وهنا يلجأ إلى الصحافة وأجهزة الإعلام؛ فيؤيده من يؤيده ويعارضه من يعارضه، ويصبح موضوع ختان البنات قضية عامة تشغل الرأي العام، مما جعل الأستاذ ثروت العناني ينظم ندوة علمية حول هذا الموضوع، دعا إليها علماء الطب والجراحة والدين والمجتمع والنفس، حيث أكد الجميع أن الدين والسنة لم يوجبا

إجراء عملية الختان بالنسبة للمرأة، كما أكدوا أن الختان يسبب أضرارًا عضوية ونفسية خطيرة بين الزوجين، من شأنها أن تحدث فتورًا أو نفورًا في علاقة المرأة بالرجل، مما يؤدي إلى تعطيل وظيفة الزواج التي شرعها الله لإعمار الكون بين الرجل والمرأة، وبالتالي يؤدي إلى أضرار وخيمة تتعلّق بالطلاق بين الزوجين، وبالتالي فقد أوصت الندوة بأنه ليس هناك لزوم لما لا يلزم.

***

(١٦)

وعلى الجانب الآخر يظل هذا الزواج السري بين منال والداخلي مصدر قلق للطرفين، حيث جرّ عليهما كثيرًا من المشكلات المادية والاجتماعية والنفسية، لأنه كان يمثل نباتًا شيطانيًا نشأ في غير تربته الطبيعية، في بيئة يحيطها الظلام والكتمان بعيدًا عن الشمس والهواء، التي تمثل مناخًا طبيعيًا للنمو والتلاحم الذي يأخذ مشروعيته من الإعلان والتراحم الأسرى بين جميع الأطراف.

فهذه هي منال التي أحاطت زواجها غير المتكافئ - في نظر أبيها - بسياج من السرية والكتمان، ولم تواتها الفرصة المناسبة لكي تصرح لأبيها بزواجها العرفي، طبقًا لما كان يراه الروائي ثروت العناني.

وفي نفس الوقت فشلت منال في أن توفق منظومتها الحياتية ما بين التواجد مع أسرتها بشكلٍ منتظم وحياتها مع هذا الزوج السري، ولم تستطع أن تواظب على التواجد المنظم في مكتبها للتدريب على شئون المحاماة، طبقًا لما هيأه له والدها الأستاذ زكي عز الدين المحامي الشهير.

ولهذه الأسباب مجتمعة فقد استشعر والدها وكذلك أمها أن ابنتهما تخفي عليهما أسرارًا كثيرة تتعلق بها، لم ينجحا معًا في أن يتوصَّلا إلى استدراجها للإفصاح عنها، مما جعل مرضَيْ السكر والضغط يأخذان بتلابيب هذا الأب المكلوم، ورغم ذلك فإنه لم يستطع أن يعبر عن ما يستشعره من حسرة وألم إلى شقيقه الحاج علي وابنه الدكتور كمال، الذي كان يحلم بأن يزوجه لابنته منال، التي تغلف حياتها بسحابه سوداء من الغموض تلقي به في آتون الشك والمرض، وهي الابنة الوحيدة التي كان يرجو منها أن تكون له نعم البنت والولد، لكنها خذلته وألقت بأبوته في مستنقع عفن من الغموض والكتمان.

وعلى الجانب الآخر لم يستطع الداخلي أن يحقق المنظومة الاقتصادية لحياته الممزقة بين دخله الضئيل الذي حصل عليه من عمله كأحد أفراد الأمن بأحد الأندية الشهيرة، وبين نفقات حياته كزوج لمنال ابنة الحسب والنسب التي اعتادت على حياة مرفهة ورغدة؛ لدرجة أنها حاولت أكثر من مرة أن تبيع سيارتها الخاصة لتدبير نفقات المسكن والحياة، إلا أن الداخلي والأستاذ ثروت العناني رفضا ذلك، حتى لا ينكشف أمرها تمامًا أمام الجميع، خاصة أمام أمها وأبيها المحامي

الشهير، اللذين سيقطعان الشك باليقين بأن منال ذهبت في غيّها إلى أبعد حدود الشطط والانحراف.

أما عثمان الداخلي، فقد صدم بهذه الزيجة غير المتكافئة، كما رفض تمامًا كل ما قام به ابنه الداخلي وزواجه بهذه الطريقة، ورفض أسلوب الزواج العرفي من منال.. (بنت الناس الطيبين)، من ابن رجل طيب أيضًا وابن أصول يحترم الأعراف والتقاليد، كما أصبح عبئًا اقتصاديًّا آخر على تلك الأسرة محدودة الدخل، سواء بالنسبة لأبيه الذي يحصل على مرتب ضئيل من عمله كمحصل في السكة الحديد، وأخيه الأكبر الذي عمل مرشدًا سياحيًّا، وكان يأمل أن يرد إليه الداخلي الجميل في أن يساعده في زواجه المؤجل منذ خمسة أعوام، وأخته التي تعمل بائعة بسيطة في محل للأنتيكات، وأمه التي لا حول لها أو قوة في إدارة شئون البيت رغم مرض القلب الذي ألمّ بها، وتحتاج إلى ميزانية أخرى لعلاجها لا يستطيع عثمان الداخلي تدبيرها، وبالتالي فإن رياح الشؤم قد أحاطت بهذه الزيجة من كل جانب، وهبت عليها العاصفة من كل سبيل.

***

وهذا هو شمل عائلة عز الدين يلتئم من جديد، بمناسبة طيبة كان يهفو إليها الجميع، سواء الحاج علي عز الدين الذي كان يرجو أن يطمئن على زواج ابنه من منال ابنة أخيه، أو من غيرها، إلا أن الدكتور كمال يرفض فكرة الزواج بشكل مطلق، خصوصًا بعد فشله في الزواج من منال ابنة عمه، إلا أنه حقق مركزًا علميًا مرموقًا، وأصبح طبيبًا مشهورًا وأستاذًا بكلية الطب.

ومن ناحية الأستاذ زكي المحامي الذي اجتمعت عليه الأمراض، خصوصًا بعد انقلاب حال ابنته الوحيدة من النقيض إلى النقيض، وأصبحت حياتها يحيطها الإبهام والغموض دون أن يدري لذلك سببًا، خصوصًا بعد أن رفضت الزواج من ابن عمها، وبعد أن كشفت له عن حبها للداخلي عثمان الداخلي، والذي رفضه أبوها المحامي الشهير، لأنه وجد أن هذا الزواج غير متكافئ من كافة الوجوه الاجتماعية والمادية، لدرجة أن الأب قد حاول أن يعرض منال على طبيب نفسي عملًا بنصيحة ابن عمها الدكتور كمال عز الدين، إلا أنها رفضت ذلك تمامًا ولم تستجب لهذا الاقتراح.

وتطل بين هذه الأنواء جميعًا انفراجة يبشر بها د. كمال، الذي أصبح يمثل حجر الزاوية لعائلة عز الدين، سواء لأبيه الحاج علي عز الدين، أو عمه المريض الذي افتقد البنت والولد، حيث يلتف الجميع حوله وهو يناقش رسالة الدكتوراه في الجراحة العامة بكلية الطب.

فهذا أبوه وأمه المريضة وبعض أطراف عائلته وبعض معارفه من الأعيان والفلاحين الذين أتوا جميعًا من كفر الشرفا لحضور مناقشة رسالة الدكتوراه التي لا تشرِّف عائلة عز الدين فحسب ولكن تشرف كفر الشرفا بأكملها.

وهذا عمه الذي تجره ابنته منال على المقعد الطبي، حيث تنفرج أساريره عن فرحة غامرة بهذا الانتصار الذي سوف يحرزه ابن أخيه الذي يعتبره بمثابة الابن العزيز الغالي الذي سوف تطول به رقبة عائلة عز الدين بأكملها، وتلك أبلة مديحة زوجة عمه التي تشد على يد الدكتور كمال مشجعة إياه وداعية له بالتوفيق، وعيناها تفصحان عن أنها لم تفقد الأمل في أن يصبح الدكتور كمال زوجًا لابنة عمه منال في أقرب فرصة.

وتستمر مناقشة الرسالة حوالي ثلاث ساعات بين صد ورد ومناورات ومحاورات، يثبت فيها كمال أنه عالم غزير المعرفة وقدير في تمكنه من مادته؛ لتعلن لجنة المناقشة بعد ذلك بأن كمال عز الدين قد حصل على درجة الدكتوراه بامتياز، حيث ينطلق التصفيق والزغاريد كعادة أهل الريف الذين لم يعتادوا على مثل هذه المناسبة.

وهنا ينتفض عمه من مقعده الطبي، حيث تمتد يداه بحنو الأب الذي يفخر بأبوّته لابن أخيه الذي وصل أعلى مراتب العلم التي كان يتمناها لابن من صلبه لو كان الله - تعالى - قد رزقه بالولد.

وكأن ذراعي الأستاذ زكي وقدميه قد فكت من عقالها، فقام ليقبل يد الدكتور كمال، ومن ناحية أخرى يلتقط يد ابنته منال ويقبلها هي الأخرى، ويضم كف كمال إلى كف منال وهو يطلق العنان لدموعه المتوسلة، وينظر إليهما بعينين راجيتين تحملان رسالة ليس لها إلا معنى واحدًا وصلت بكل حرارتها وعذوبتها إلى قلبيهما، وإلى قلوب الجميع.

***

(١٨)

تظل محنة الزواج السري أو العرفي تطارد بلعنتها كلًّا من الداخلي ومنال، ففي الوقت الذي يفرح فيه الزوجان بثمرة زواجهما، عندما يوشك أن يأتي إلى الأسرة طفل مرتقب، يصاب الزوجان السريَّان بما يشبه الصدمة عندما يتأكدان أن في الطريق إليهما طفلًا لا يتوقعانه، ولا يكون محل ترحيب في هذه الظروف التي لا تسمح لهما بمجرد الحلم أو الابتسام، وأن هذا الجنين الذي يسكن في أحشاء منال، ليس محل ترحيب أو احتفاء وسط هذه الأنواء.

وهنا تتلاطم أمواج الضياع والحيرة، ولا يدري الداخلي أو منال حلًّا لتلك المشكلة التي كانت لا بد أن تكون في الحسبان عندما أقدما على هذا الزواج السري المشئوم، ولم يجدا في محنتها من يستطيعان أن يستشيراه في هذا الحمل الذي بدأت دلائله تعلن عن وجود جنين متمرّد سوف يعلن عن وجوده لا محالة، وأن مظاهره لن تخفي على وزن وحجم وتضاريس منال مهما تفننت في إخفائه وادعت البراءة والإنكار.

وعندما سدت أمام الزوجين سبل النصح والإرشاد، خاصة وأن مستشارها الأوحد الروائي ثروت العناني، قد فقد قراطيس الحكمة، ولم يعد قادر على إسداء النصح أمام تزاحم وتلاطم المشكلات التي أحاطت بهما، وكل ما تفتقت عنه قريحته هو أن تلجأ منال إلى أحد أصدقائه من الأطباء لتخليصها من هذا الضيف الثقيل.

وبكل إباء وشهامة الصعيدي، يرفض الداخلي هذا الحل السلبي واللاإنساني، والذي لا يرضي الله في تقديره، ويصمم على أن يعود إلى مسقط رأسه بالأقصر، ليعرض الأمر على أبيه، لعله يشير عليه بحكمته وخبرته بما قد يضع حدًّا لهذه المصيبة، دون أن يحرمه من الابن القادم الذي كان يرجوه من حبيبة عمره منال.

تمتثل منال لهذا الحل، ففي الوقت الذي يريد أن تتخلص فيه من هذا الابن السري، لما سوف يجلبه عليها من الهموم والمشكلات، إلا أنها بغريزة الأمومة ترجو أن تحتفظ بجنينها على أطراف أجنحة بيضاء، لم تكن في الحسبان.

لم يصدم الأب عثمان الداخلي بهذه النتيجة فهو يتوقعها، فإن مآل كل زواج في الدنيا هو الحمل والإنجاب، ولكنه يتمنى ألا يثمر هذا

الزواج ثمرته بهذه السرعة لكثرة الغيوم والسحابات وطيور الشؤم التي تحوم حوله، ولم يستطع الأب عثمان الداخلي أن يترك لمشاعره العنان لكي يحس بلمسة السعادة الغامرة الممزوجة بالشجن لتستولي على مشاعره كجد يريد أن يحتفي بحفيده الحلم القادم والمنتظر، ولكن مخافة المسؤولية وحجم المشكلة تجعلانه يعيد حساباته من جديد، فهو لا يريد كابنه تمامًا أن يتخلص من هذا الجنين، وفي نفس الوقت لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يكشف أمر هذا الزواج السري لوالد منال الذي يعاني من وطأة المرض الذي ألم به في الفترة الأخيرة.

وفي الوقت الذي يُقلّب فيه الجميع الأمر من كافة وجوهه، يحدث ما لم يكن واردًا في الحسبان أو التقدير، فيحمل إليهم مندوب مركز شرطة الأقصر خطابًا يستدعي الداخلي للخدمة العسكرية، وفي الوقت الذي لم يسبق فيه للداخلي أو كثير من زملائه التدريب على استخدام أي نوع من السلاح، فقد تحمل مع الجميع في مصر ويلات النكسة التي هبت برياحها السوداء لتكون هزيمة ١٩٦٧، والتي كانت نتيجة حتمية لهذا الصلف العسكري والتفسخ العميق بين القيادتين السياسية والعسكرية.

***

(١٩)

وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ففي الوقت الذي حاولت فيه منال أن تجد حلًّا لمشكلتها التي راحت تعلن في حياء عن نفسها في صورة الحمل الذي بدأ يظهر منذ شهوره الأولى على تضاريس منال الأنثوية، وفي الوقت نفسه حاولت منال التخلص من هذا الحمل، إلا أن عثمان الداخلي كان ضد ذلك تمامًا لأن هذه الجنين الساكن في أحشائها لا يخصها وحدها، بل ينتمي إلى أب غائب، ولا بد للغائب من عودة مهما طال الغياب.

وبينما تشتعل جمرة النار نتيجة لهذا الحمل السري القابع في أحشاء منال، والذي يعلن عن نفسه في تحدٍّ قد يكون سافرًا في بعض الأحيان، والذي حاولت منال أن تخفيه بارتداء الملابس الفضفاضة، والاختفاء عن عيون أمها وأبيها اللذين لا يريدان أن يصدق كل منهما فيما بينه وبين نفسه ما يتوهمه كل منهما بالنسبة لابنتهما الوحيدة ومناط أحلامهما منال.

وفي الوقت الذي حلّت فيه نوبة الرجوع بوجهها البشع على كل بيت وحارة في مصر، وراح الجنود المصريون يعودون فرادى محملين

بعار تلك الهزيمة أو بأخبار من استشهدوا أو أسروا أو فقدوا، راح الأمل يعاود عثمان الداخلي وأسرته وحاملة ولده منال عز الدين في عودة الغائب.. إلا أن الأمل قد تبخّر تمامًا في معرفة مصير الداخلي، الذي لم يعد، ولم يستطع المسؤولون في القوات المسلحة المصرية أن يؤكدوا حياة أو موت أو فقدان الداخلي كغيره من الجنود، بل راح الأمر يبدو مغرقًا في الغموض، وكان الأمل يكاد مقطوعًا في عودة الغائب الذي أصبح مصيره مجهولًا.

ولما كانت ثمرة الغائب تعلن عن وجودها في تحدٍّ سافرٍ يومًا بعد يوم، فقد راحت منال تتخفي تمامًا عن وجهي أمها وأبيها وخدم المنزل، مما جعلهما يعتقدان أن منال تمرّ بحالة نفسية سيئة، ويحتاج الأمر إلى العرض على الأطباء المتخصصين.

وهنا قفز بسرعة إلى مُخيّلتيّ الأب والأم اسم ابن عمها الدكتور كمال علي عز الدين ليتفحص منال فحصًا مبدئيًّا ويرى ما يراه مناسبًا بشأن حالتها الصحية والنفسية المتدهورة، لإنقاذها من هذا الانهيار.

تعلم منال بهذا القرار، ولم يكن أمامها من طريق إلا أن تلجأ إلى عثمان الداخلي، حتى لا ينكشف أمر هذا الجنين السري، وليساعدها في

التخلص من هذا الجنين، إلا أن عثمان الداخلي يتمسّك به ليكون عوضًا له عن ابنه صاحب المصير المجهول، والذي قد فقد الأمل في عودته، ويصمم أن يواجه وحده العواصف مهما كانت حدتها في سبيل حماية هذا الحفيد المرتقب.

***

(٢٠)

خرج عثمان الداخلي من داره بالأقصر قاصدًا كفر الشرفا، متدثرًا بزيه الصعيدي، وقد أخفى تحت عباءته بعناية شيئًا ما، ولم تدرِ منال ماذا كان يحمل تحت طيّات عباءته، كما عمد عثمان أن يحمل خطاب القوّات المسلحة الذي يفيد بأن ابنه الداخلي في عداد المفقودين.

في الوقت الذي يصل فيه القطار إلى كفر الشرفا تعلم منال بنية عثمان الداخلي في الاتجاه بها إلى دوّار عمها عمدة كفر الشرفا، وتحاول أن تهرب من مصيرها المحتوم، إلا أن عثمان الداخلي يهددها بالقتل، إن هي رفضت أن تذهب معه إلى عمّها الحاج علي عز الدين.

يفاجأ الحاج علي عز الدين عمدة كفر الشرفا بمنال متدثرة بملابس ريفية سوداء يصطحبها رجل يتدثر أيضًا بملابس صعيدية ويحمل تحت عباءته شيئًا ما حاول إخفاءه عن شيخ خفراء كفر الشرفا الذي أراد أن يمنعه من مقابلة العمدة خوفًا من مظهره الغامض، إلا أن الحاج علي رحّب وسمح بهذا اللقاء، وما أدهشه بشدة أن يفاجأ بمنال ابنة أخيه ترتدي هذا الزي الريفي الأسود البسيط.

لقد ارتاب العمدة في الأمر.. لماذا تفعل منال بنفسها ما فعلت؟ ومن هذا الرجل؟ وما علاقته بابنة أخيه؟.. وقبل أن يتناول عثمان الداخلي قهوته، أراد أن يجيب على جميع تساؤلات الشك والريبة التي قفزت إلى صدر الحاج علي، حيث قام عثمان الداخلي بإلقاء جميع الحقائق الـمُرّة المتعلقة بهذا السيناريو شديد القتامة، وشرح حقيقة تلو أخرى في سرعة مذهلة، وكأنما قد أراد عثمان الداخلي ألا يترك للحاج علي فرصة لمحاولة التقاط أنفاسه، حيث سقط نبأ زواج منال ابنة أخيه الوحيدة كلطمة مفاجئة أصابته في مقتل وأوقعته في ذهول، وكأنه لم يسمع شيئًا، كان يرفض في داخله أن يعي أو يتفهَّم أمر حمل ابنة أخيه التي كان يحلم أن يزوجها لابنه.

لقد كان العمدة شبه مغشيٍّ عليه وهو يتلقى هذه الطلقات القاتلة الواحدة تلو الأخرى، إلى أن تقدم إليه عثمان الداخلي بالورقة التي تؤكّد هذا الزواج العرفي الذي وقع ما بين ابنه الداخلي وابنة أخيه منال، والحقيقة التي تفيد أن ابنه قد أصبح في عداد المفقودين، وبالتالي فإنه أصبح في عداد الشهداء الذين ماتوا غدرًا وغيلة في سبيل الدفاع عن كرامة المصريين ومصر كلها، حاول العمدة أن ينقضّ على عثمان ليأخذ

بعنقه في ثورة هوجاء، ويصرخ العمدة في شيخ الخفراء ليعطيه بندقية ليقضي على عثمان الداخلي وابنة أخيه منال التي خلفت العار لأبيها ولعائلة عز الدين بأكملها، إلا أن عثمان الداخلي يخرج من بين طيات عباءته بندقية يلقي بها بين يدي العمدة، وفي نفس الوقت يحمل كفنًا بين يديه راجيًا من العمدة أن يطلق عليه الرصاص، بينما يفتدي عثمان زوجة ابنه، ويحاول أن يقف أمامها مدافعًا عنها وعن جنينها الساكن في أحشائها، ويضع العمدة أصبعه فعلًا علي الزناد، إلا أنه في النهاية تخور قواه ويلقي بالبندقية بعيدًا ويدوس الكفن الأبيض بقدميه.. ويصرخ فيهما محذرًا: اخرجوا من بيتي يا كلاب.. اخرجوا من بيتي يا كلاب.

***

(٢١)

تكالبت الأمراض على الأستاذ زكي عز الدين المحامي، خصوصًا عندما اختفت ابنته منال من بيت أبيها في القاهرة، ولما يئس من البحث عنها أبلغ الشرطة، التي راحت تبحث عنها في كل مكان دون فائدة، وتدهورت صحته تمامًا، وأُدخل المستشفى تحت رعاية ابن أخيه الدكتور كمال الذي أيقن أن صحة عمّه في تدهور مستمر، وتأكد من أن شفاء عمه أو تحسُّن صحّته متوقّف على أن يطمئن على ابنته، التي أصبح مصيرها مجهولًا أمام الجميع.. عدا عمها العمدة الذي يعرف حقيقتها المرة ويخفيها عن الجميع، وخصوصًا والدها خوفًا عليه من وقع الصاعقة التي ستقضي عليه تمامًا.. خصوصًا فيما يتعلق بزواجها العرفي وجنينها السري، وصاحب هذا الجنين الذي أصبح مصيره مجهولًا في هذه النكسة التي لا تحمل هي الأخرى في أحشائها إلا الهزيمة والخذلان.

لم يملك الحاج علي عز الدين عمدة كفر الشرفا إلا أن يذهب إلى الأقصر متخفيًا؛ حتى يصل إلى منزل عثمان الداخلي ليجد أن ابنة أخيه

قد وضعت طفلًا جميلًا سمَّته «علي» على اسم عمها الذي لم تطاوعه نفسه أن يصيبها بسوء، وعندما علمت منال بما أصاب والدها من مرض وما ألمّ بأمها من هلع وجزع وحزن لفراقها راحت تبكي بمرارة، ليأمرها بأن تذهب معه لتطمئن على أبيها، وتترك ابنها في رعاية جدّته وجده لأبيه، ويترك الأقصر و«علي» الصغير وهو ينوي أن تتركها معه منال إلى الأبد وبغير رجعة، حتى ولو كان الثمن هو أن تفقد ابنها الرضيع.

***

(٢٢)

بعودة منال إلى أحضان أبيها وأمها، استرد الأستاذ زكي صحته، واستعادت أبلة مديحة سعادتها، حيث استطاع عمها العمدة أن يقنع الجميع - بما فيهم الشرطة وابنه الدكتور كمال - بأن منال كانت في ضيافته بكفر الشرفا، ولما كانت مريضة واشتد بها المرض، فإنه أراد أن يخفي ذلك عن أبيها وأمها، ولما تماثلت منال للشفاء عاد بها لقصر أبيها.

واقتنع الجميع بما سرده العمدة عن مرض منال وتواجدها بدوَّاره طوال مدة غيابها إلى أن شفيت، إلا أن الدكتور كمال الذي ما زال يكن في أعماقه حبًّا يصل إلى حد الانبهار، قد وجد أن هناك أشياء كثيرة تكسّرت في كيان وشخصية وحيوية منال، فلم تصبح كما كانت تلك الفراشة القَزَحِيّة الألوان، ذات العبارات والكلمات الرشيقة التي تلهب الوجدان، حتى العيون فقدت لمعانها، وملابسها فقدت ألوانها.. ويقسم بينه وبين نفسه أن هذه ليست المرأة التي أحبها، وبدلًا من نظرة الحب الجارف الذي كان يسيطر على كمال نحوها، صارت منال في نظره تلك الدمية التي ألقت في مكان ما بروحها.. وتحول حبها الساكن في أعماقه

إلى مجـرد عطـف وإشـفاق عليهـا، وراح يـسأل نفـسه في شـكّ وريبـة لا يدري مصدرهما قائلًا: هل لو اختتنت منال مثل كل بنـات كفـر الـشرفا هل كان حالها سيصل إلى ما وصلت إليه الآن؟

***

(٢٣)

حاولت منال أن تنسى أو تتناسى محنتها التي تعيش فيها، سواء فيما يتعلق بزوجها الغائب أو ابنها الذي لا يدري الجميع عنه شيئًا حتى الآن، سوى عمّها العمدة الذي يحاول أن يشطبه من حياتها، بالرغم من أنها تعاود زيارته من وقت لآخر في منزل جده عثمان الداخلي دون علم الجميع، وتحاول أن تترك له بعض المال الذي يرفض جده عثمان قبول مليم واحد منه بحجة أن الطفل ابنهم ومن نسلهم، فهم مسؤولون عن رعايته وكفالته، وظل هذا الإحساس بالتباعد بينها وبين ابنها يؤرّقها طويلًا.

هذا بالإضافة إلى قصّة زواجها السري الذي لا يعلم به الجميع سوى عمها العمدة أيضًا، ولكن الذي يضاعف همها ومحنتها فهو تقدُّم بعض راغبي الزواج للزواج منها، ومنهم شاب محامٍ مرموق يقوم بإدارة مكتب المحاماة الخاص بوالدها الذي شجع هذه الزيجة حتى يطمئن على مصير ابنته منال قبل موته، خصوصًا أن المرض قد هاجمه بضراوة في آخر أيامه، ولا يدري بأن ابنته قد ارتبطت بالداخلي، هذا

الشاب الذي جُنّد فأصبح مصيره مجهولًا عندما فُقد في نكسة ١٩٦٧، وكانت منال ترفض كل راغب في الزواج منها دون أن يدري أحد الأسباب الحقيقية لهذا الإعراض عن الزواج إلا عمّها العمدة، الذي حاول أن يبلغ شقيقه ولكنه لم يجد وقتًا مناسبًا لذلك؛ لاشتداد وطأة المرض على شقيقه يومًا بعد يوم، وهكذا تظل منال كالمعلّقة؛ حتى يفاجئها عثمان الداخلي باتصال تليفوني بمكتبها الملحق بمكتب المحاماة الخاص بأبيها، ليخبرها بأن ابنها قد أصيب بمرض شديد، وأن عليها أن تذهب إلى الأقصر بشدة للاطمئنان على الصغير، كما أفهمها أن هناك خبرًا آخر يهمها أن تعرفه يتعلق بمصير زوجها الداخلي، حيث يحسم هذا الخبر كثيرًا من الأمور المعلّقة.

***

(٢٤)

انتهزت منال فرصة سفر زميلتها سلمى، والتي تعمل محامية معها بمكتب والدها إلى الأقصر من أجل المرافعة في إحدى القضايا بمحكمة الأقصر، حيث تعلّلت منال بأنها تريد أن تتدرب على مثل تلك المرافعات، وفي نفس الوقت كنوع من الترويح الذي تحتاج إليه منال في تلك المرحلة.. حيث سعد أبواها بذلك بل وشجعاها عليه.

وفي القطار حيث تمثل وقع الأصوات المتلاحقة والرتيبة للعجلات، نوعًا من وخز الإبر في وجدان منال، وإزاء دموعها المتلاحقة، لم تستطع منال أن تخفي عن سلمى مكنونات نفسها وما ألمّ بها من كوارث وصدمات نتيجة لهذا الزواج السري والابن الذي كتب عليها أن يعيش بعيدًا عنها، وتظل سلمى مناط ثقتها وصندوق أسرارها، فصاحَبَتْها حتى اطمأنت على طفلها، حيث أمضت كل من منال وسلمى ليلتهما في دار عثمان الداخلي، وقد استرد الطفل صحّته عندما بات في أحضان أمه.. وقد كانت هذه عادة الصغير حينما تسوء

صـحته في غيـاب أمـه.. ولا يـستريح إلا إذا كـان محتميًـا بـصدر أمـه وحنانها.

وفي ختام هذه الزيارة، يبرز عثمان الداخلي تلك الورقة التي تحسم أمورًا غامضة كثيرة بالنسبة للمصير المجهول للزوج الغائب.. تلك الورقة التي تؤكد فيها الشؤون العامة للقوات المسلحة أن الجندي الداخلي عثمان الداخلي أصبح في عداد الشهداء، وهذا هو سر الحزن الشديد الذي كان يخيم على الجميع في دار عثمان الداخلي.. وهنا ذرفت منال نهرًا من الدموع.. من أجل طفلها الذي كتب عليه أن يعيش يتيمًا.. ومن أجل زوجها الذي فقدته إلى الأبد.. ومن أجل حياتها التي استبدت بها الرياح والسحب السوداء من كل الجهات.

***

(٢٥)

رغم الأجنحة المتكسرة التي كانت تتعقّب تلك الفراشة الهائمة، التي أصبحت لا تملك من أمرها شيئًا إلا أن تلقي نفسها في هوّة سحيقة من الضعف والهوان والاستسلام مما جعل الجميع يستشعرون بأن منال تسير بخطى سريعة إلى مصير مشئوم لا يدري مداه إلا الله سبحانه وتعالى.. وراح الجميع ينظرون إليها بعيون الحسرة والإشفاق، ويحسون بالأسى لهذه الملكة المتوّجة التي فقدت مملكتها، وخصوصًا عمها العمدة الذي يعلم بتفاصيل مأساتها، وربما اعتبر نفسه مسؤولًا مباشرًا عن تلك الخيوط العنكبوتية التي أحكمت أغلالها حول تلك الزهرة البيضاء، فلقد أحس عمها بأنه عاقبها بالموت دون أن يدري بأن يعيش «علي» الصغير بعيدًا عن حضن أمه، وأنه هو أيضًا الذي ضاعف عذابها لأنه لم يستطع أن يعلن لأخيه عن المأساة الحقيقة لابنته البائسة، وأحس - وهو الذي يلجأ إليه الجميع لحل مشكلاتهم - بأن مشكلة منال ابنة أخيه أصبحت بين يديه ككرة من الخيوط المعقّدة لا يعرف السبيل إلى حلّها.

وهذا هو الدكتور كمال الذي أصبحت منال بالنسبة له ليست الحبيبة والحلم التي كان يسعي إلى ودادها، ولكن صارت الأنثى مكسورة الجناح لسبب لا يفهمه التي تحتاج إلى عطفه وشفقته، فما كان منه إلا أن عرضها على كثير من الأطباء النفسيين الذين أجمعوا أنها ربما لو تزوجت لاستردت لياقتها النفسية والجسدية، وربما عادت إلى تلك الفراشة القديمة التي تملأ حياة الجميع بهجة وسرورًا وتألقًا.

وهنا يتحرك في وجدان الدكتور كمال عز الدين بعض مشاعر الحب القديم، وتتصارع في داخله شهامة الفارس الذي يريد أن ينقذ محبوبته السابقة وابنة عمه التي يرى أن خلاصها لا بد أن يكون بحصانه هو.. وخصوصًا أنها رفضت الكثير من الذين أرادوا الزواج بها، أو التقرّب إليها وهذا يعني - من وجهة نظره - أنها ربما أنزلته في قلبها منزلة جديدة تتطلب منه التقدم للزواج من ابنة عمه متحليًا بأخلاق الفرسان.

تقدم الدكتور كمال لأبيه العمدة مُعربًا عن رغبته في الزواج من منال ابنة عمه، ولكن العمدة أخذته هذه المفاجأة التي لم يتوقعها من ابنه في هذا الوقت بالذات لأسباب كثيرة، أهمها زواجها السري من الجندي

المفقود في الحرب.. والسبب الثاني أن منال بعد كل الذي يعلمه عنها عمها لم تعد الزوجة التي يسعده ويشرفه أن يزوّجها من ابنه الدكتور كمال أستاذ الجامعة والطبيب المشهور.. ولكن السبب الوهمي في تقدير العمدة الأب أن يوافق على هذا الزواج على مضض إشفاقًا على شقيقه الذي هدَّه المرض لعل زواج ابنته التعيسة يحمل إليه بعض نسائم استرداد بعض صحته ولياقته.. أما السبب الأخير فإن هذا الزواج قد يخفف عن منال بعض مرارتها التي استبدت بها وأخذت بعنقها.

وكنوع من التبرير النفسي راح العمدة يخفف عن نفسه بعض ما يحمله كاهله من هذا السر أو من هذا الهمّ الذي يحمله وحده، ولا يشاركه فيه أحد من الأسرة حتى ابنه الذي يريد أن يتزوّج من منال ابنة أخيه صانعة هذا السر والهم العظيم.

كنوع من التبرير.. بعث العمدة إلى إدارة الشؤون العامة بمن يستفسر عن المصير المجهول للجندي الداخلي عثمان الداخلي ليعلم أن الداخلي قد أصبح في عداد الشهداء، وأن من حق منال ابنة أخيه أن تتزوج بمن تريد.

***

(٢٦)

في الوقت الذي يلح فيه الدكتور كمال على أبيه العمدة في التعجيل بالزواج من ابنة عمه منال، وفي الوقت الذي يقلّب فيه العمدة الأمر على كافة وجوهه، لم يجد العمدة أمامه من خلاص إلا أن يحاول أن يبلغ ابنه الدكتور كمال بكل تفاصيل الزواج السري والابن السري والزوج الذي راح شهيدًا في سبيل الدفاع عن الوطن.

وبينما كان الدكتور كمال عز الدين تلح عليه الرغبة في الزواج من ابنة عمه إذ بوالده العمدة تلوح له فرصه ذهبية أراد ألا يفلتها، حينما كان الدكتور كمال يقضي أجازته بدوّار العمدة بكفر الشرفا..

لاحت هذه الفرصة عندما عرضت على عمدة كفر الشرفا في وجود الدكتور كمال قضية لحسمها والإفتاء فيها، تتعلق بسيد جاد الله أحد زملاء كمال القدامى عندما كان تلميذًا بالمدرسة الابتدائية، حيث تزوج سيد من سعاد ابنة أحد أعيان كفر الشرفا يدعى حنفي الزنفلي؛ ليكتشف سيد جاد الله أن زوجته ليست بكرًا، ويريد تطليقها واسترداد

جميع ما أنفقه عليها، وأن تبرئ ذمته من كل النفقات والالتزامات الشرعية، بالرغم من أنه كان يحبها حبًّا شديدًا.

لقد أراد العمدة بطريقة عملية أن يختبر مدى رجاحة عقل واتجاهات ابنه الدكتور كمال تجاه هذه القضية، فأوكل إليه الحكم في هذه القضية، ولأول مرة يحس الدكتور كمال بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتق أبيه العمدة، ويحاول ألا يتسرع في الحكم في هذه القضية حتى لا ينصف طرفًا على حساب طرف ظلمًا وعدوانًا، حيث يتجه الدكتور كمال إلى سعاد ليسألها عن الفاعل الحقيقي الذي ارتكب معها هذه الفعلة الشنعاء، يعترض أبوه العمدة على هذا السؤال الذي يخدش حياء الأنثى، فوق ما يسببه ذلك من النفخ في الرماد لإشعال نار لا لزوم لها.. ويصمم الدكتور كمال على أن تفصح له عن ذلك، حيث تؤكّد أنها كانت صغيرة جدًّا عندما حدث ذلك، وكل ما تذكره عن الفاعل أنه كان أحد الأجراء الموسميين الذين كانوا يساعدون أباها في جمع محصول الذرة وتقشيرها بعد الجفاف، ولم تستطع أن تبلغ أمها بما حدث خوفًا وحياءً مما كان.

وأقسم الأب بأنه لم يعلم شيئًا عما حدث لابنته إلا بعد زواجها، وأنه راضٍ بما سوف يحكم به عليه الدكتور كمال والعمدة، إلا أنه لا يرضى الفضحية له ولابنته، وأنه مستعد لقتلها في الحال إذا ما حكم عليه بذلك، وهنا يتصدى كمال والعمدة للوالد الذي أراد أن يلتقط البندقية من كتف شيخ الخفراء، ويعمل كمال على تهدئه الموقف، موجهًا كلامه لسيد جاد الله ذلك الزوج المصمم على تطليق زوجته، مذكِّرًا له بطفولتهما البريئة معًا، وكيف كان طيبًا ومتسامحًا إلى أبعد الحدود، وماذا تفعل طفلة في مثل سنّها أو في مثل سنهم في ذلك الوقت عندما تتعرض لوحش آدمي تستبد به رغباته الحيوانية لينقض على طفولة وبراءة سعاد ويفقدها أغلى ما يمكن أن تفقده أنثى، ويفتح مع المرأة التي أحبته وأحبها صفحة جديدة بيضاء، وهنا يتذكر سيد طفولته، وحبه لتلك المرأة التي أراد أن يقطع أوصالها، ويرتمي في حضن صديقه القديم كمال عز الدين باكيًا متطهرًا ويعود من حيث أتى.. ولكن يظل هناك تساؤل قديم وملح يكاد أن ينطلق بقوة وعنف من صدر الدكتور كمال عز الدين: هل سعاد اختتنت مثل جميع بنات كفر الشرفا أم لا؟

***

(٢٧)

لسببٍ في نفس يعقوب، اعتبر الحاج علي عز الدين أن الحكم الذي أصدره ابنه الدكتور كمال عز الدين في قضية سيد وسعاد حكمًا واجب التعميم، وكأن الدكتور بذلك قد أصدر حكمًا على نفسه واجب التنفيذ أيضًا فيما يتعلق بزوجته المقبلة والتي يحبها (منال ابنة عمه)، وقد رأى العمدة أن قضية منال أخف وطأة من قضية سعاد؛ لأن الفاعل في قضية منال معروف.. وأما الفاعل في قضية سعاد للمجهول.

وهنا يمهد العمدة لتمرير هذه الزيجة على الجميع.. على أم منال وأبيها اللذين يرحبان بهذا الأمر ترحيبًا كبيرًا، وعلى ابنه الدكتور كمال عز الدين نفسه الذي راح أبوه العمدة يذكره بأسلوب تقريري صارخ برجاحة عقله وسعة أفقه بالحكم الصائب والشجاع والمتسامح الذي أصدره في قضية سيد وسعاد، وكأنه كان يريد أن يستخدم تلك الرخصة في تبرير زواج كمال من منال مع الفارق الكبير في القضيتين لرجاحة كفّة منال أكثر من كفّة سعاد.

أما منال.. تلك الأنثى مكسورة الجناح، والتي أحست أن السعادة والعمر يفران سريعًا من كفيها، وأنها قد أصبحت كالريشة المعلّقة التي تبحث عمن يحرّكها يمينًا أو شمالًا.. للجنة أو للنار.. فقد أسلمت أمرها لله ولعمّها.. الذي راحت تذكره دائمًا بأن أمر موافقتها على الزواج من كمال مشروط ومعلق بأن يعرف كمال كل قصتها، وأن يقبل بأن يقاسمها «علي» ابن الشهيد الداخلي عثمان الداخلي حياتها المقبلة.

وافق عمها العمدة على كل شروطها.. إلا أنه طلب منها تأجيل مشاركة ابنها علي لحياتها الزوجية إلى وقت مناسب آخر، بينما أكّد لها عمها العمدة أن ابنه الدكتور كمال سيتفهّم أو هو متفهم بالفعل لوضعها تمامًا، وأنها ستكون موضع تقديره واحترامه في كل الأمور.

***

(٢٨)

حاول العمدة بعد أن استجمع أطراف شجاعته أكثر من مرّة أن يبرِّئ ذمته ويكشف المستور في كل ما يتعلّق بابنة أخيه منال وزوجة ابنه المقبلة، ويشرح لكمال كل ما يتعلّق بظروف منال وزواجها السرّي وطفلها الذي أنجبته من زوجها الشهيد، إلا أن كمال فاجأه بأنه يعرف عن منال كل شيء، وبأنه يعفي أباه العمدة من أية تفصيلات هو في غنى عنها، وأن منال قد أبلغته بكل ظروفها، كما أن الأطباء المتخصصين، قد قدموا إليه تقريرًا شاملًا بحالتها، ولأنها ابنة عمه ويحبها فإنه لن يخذلها وسوف يدبّر لها كل أسباب السعادة دون قيد أو شرط.

هنا تنفّس العمدة نفسًا عميقًا، وحاول أن يتصالح مع واجبه وعواطفه كأب لكمال، وبين ما يمليه واجب الأخوة بالنسبة لأخيه وابنة أخيه، ولم يكن يدري العمدة المسكين أن ما يقصده الأب مختلف تمامًا عما يعنيه الابن، فالعمدة كان مهمومًا بأن يوضح مدى ما آل إليه الزواج السري لمنال وتبعاته الجسيمة التي أعقبته.. أما بالنسبة لما كان يعنيه

الدكتور كمال بالنسبة لمنال فقد كان يعني صحّتها النفسية التي كانت تحتاج في علاجها إلى وقتٍ طويل.

وهكذا لم يتلاق الخطّان المتوازيان لسوء الفهم بين الطرفين، وإن كان العمدة يحسن الظن تمامًا في تفهّم ابنه الدكتور كمال لموقف منال؛ لعلمه وثقافته وصلة رحمة وحبه لمنال، وأخيرًا.. للحكم الذي أصدره في قضية متشابهة بين سيّد وسعاد.

***

(٢٩)

بين طلقات البنادق وزغاريد ورقص النساء وهو الأطفال وتبريكات الرجال عقد قران كمال ومنال في نفس الدوار الذي ولد فيه كمال، واختلط صوت المأذون بهذا الهدير الصادر من صوت الصلفات. ولم يستبن أحد شيئًا مما قاله المأذون من عبارات عقد القران حين وضع كمال يده في يد عمه.. ولم يستبن أحد كلمة الثيب بدلًا من كلمة البكر التي أطلقها المأذون عن العروس، أو سمعوها ولم يصدّقوها، أو اعتبروها خطأ لفظيًّا من المأذون بالنسبة لتلك الزوجة التي يتأكّد الجميع أنها بكر خالصة ولا يعرف غير ذلك إلا عمها الذي أسعده أن تمرّ كلمة "الثيب" على الجميع، وربما اعتقد العمدة أن منال أو كمال قد قاما بإبلاغ أخيه الأستاذ زكي عز الدين بما غاب عنه من أمر ابنته منال، والغريب أن الوحيدة التي فطنت لهذه الكلمة الحاجة فاطمة أم الدكتور كمال التي شهقت شهقة كبيرة، لم يتمالك العمدة أمامها إلا أن يضع باطن يده على فمها كأنما كان يريد أن يخرسها تمامًا حتى لا تعود إلى مثل هذا الانفعال الذي سوف يسبب فضيحة كبيرة، وربما يصل بهذه الزيجة إلى طريقٍ مسدود.

لقد حرص العمدة أن يكون من أول المدعوّين لهذا الزواج سيد وسعاد اللذين أصدر عليهما الدكتور حكمه الشهير واليتيم، بأن تستمر حياتهما الزوجية، رغم ما اكتشفه سيد من أمر زوجته التي تم اغتيال طفولتها برغبة متدنية تفرح خسة ونذالة من أحد الأجراء.

بعد إتمام إجراءات عقد الزواج بالطابق الأرضي بدوار العمدة، دفع العروسان دفعًا من المدعوين من النساء والرجال إلى الطابق العلوي الذي خصص للعروسين، وكان من أهم من صعد مع العروسين إلى الطابق العلوي سيد وسعاد وأم حسن الداية التي كانت تحمل بين كفيها بإباء وشمم تلك المحارم البيضاء، متعمّدة أن تدخل مع العروسين كعادتها إلى غرفة النوم لتأتي بالدليل اللوني وتلك البقعة الأرجوانية، فوق تلك المحارم لتحمل الدليل على نقاء صفحة العروس، وأنها بكر لم يمسسها بشر، إلا زوجها الدكتور كمال الذي سوف يأتي بهذه المحارم وهي محمّلة باليقين المبين.

تحاول أم حسن الداية أن تدخل إلى غرفة العروسين لتأتي معها بالبرهان المبين، ولكن الدكتور كمال يصرفها بلطف ويغلق الباب خلفه ليقوم هو وحده بهذا العمل المجيد.

***

تظل النسوة، كما هي عادتهن، عند كل زفاف تطرقن باب العروسين بشدة وبدقات متلاحقة ومتعاقبة، ليأتي لهن العريس بدليل البراءة.. و..

ولكن يطول الانتظار وتزداد الطرقات فوق باب العروسين كأنها تريد أن تخلعه من مكانه أو تنتزعه انتزاعًا من موقعه، ليخرج كمال بعد طول انتظار وهو يحمل بين يديه تلك المحارم وهي ملطخة بدم أكثر احمرارًا من كل دماء العرائس السابقات، حيث يلقيها في وجه النسوة المنتظرات المترقبات، ليلعن ويسب الجميع، وليخطف إحدى البنادق من أحد المدعوين، ليطلق بعض الطلقات في الهواء ويهدد الجميع بأنه سوف يقتلهم جميعًا إن ظل أحدهم بالدوار، ولكن تلك النسوة تقمن باختطاف تلك المحارم، حيث تغادرن الدوار وتطفن به كفر الشرفا على أضواء المشاعل التي أحالت ليل كفر الشرفا إلى ظهر أحمر، مرددات لأغنيات «الحمص جوهر..»، «قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشّى..»، إلى «حلوة يا بلحة يا مقمّعة..».

يحدث كل هذا والجميع في ذهول.. زكي عزّ الدين المحامي الشهير وزوجته أبله مديحة.. والعمدة وزوجته الحاجة فاطمة اللذان يعرفان ما لا يعرفه الجميع.

***

(٣٠)

في الصباحية أو في صباح ليلة الزفاف، كما يطلقون عليها، تقوم الحاجة فاطمة في الصباح الباكر لتجهيز بعض الفطائر المشلتتة بفرن الدوّار بمساعدة بعض النسوة من الجيران لزوم فطور العريس والعروس، مع بعض أطباق العسل الأبيض والجبن القديم حيث تم تجهيز صينيتين؛ إحداها للعريس والعروس قُدِّمت لهما بحجرتهما بالطابق العلوي لزوم طعام الإفطار، والأخرى للأستاذ زكي عز الدين وأبله مديحة والعمدة وزوجته، ولكن الجميع سواء العريس والعروس والضيف وأهل الدار لم يقربوا هذا الطعام؛ فالكل متلهّف ومترقّب ليهبط لهما كمال أو منال من الطابق العلوي ليشرحا للجميع أسباب هذه الثورة العارمة التي استبدَّت بالدكتور كمال في ليلة عرسه، مما قلب الفرح رأسًا على عقب في هذه الليلة المنتظرة.

تحاول أم كمال أكثر من مرة أن تستحث العروسين إلى النزول إلى الطابق الأرضي، حيث كان الجميع في انتظارهما، ولكن الدكتور كمال يرفض ذلك ويصرفها بالحسنى، ليصعد العمدة ويأتي بالدكتور كمال الذي ما زال مرتديًا لملابس الزفاف، والذي يبدو عليه آثار الأرق والإرهاق وتهدل ملابس الزفاف، حيث لا يلقي تحية الصباح على الجميع، كما لا يرد على التهاني التي تلقّاها منهم، ولكن الذي حيّر الجميع وزاد الأمر غموضًا ما لاحظوه جميعًا من أن رأس كمال محاطة

برباط من الشاش يشبه تمامًا تلك المحارم التي ألقاها في وجوه الجميع ملطّخة بالدماء.

تحاول نظرات الجميع اللاهثة أن تستشف شيئًا من الحقيقة، أو تفسيرًا لما حدث من الدكتور كمال ليلة زفافه بالأمس، ولكن قسماته المتجهّمة لا تسمح لأحد بأن يسأله عن شيء، حتى ولا الاستفسار عن عروسه التي لم تغادر حجرتها ليطمئن عليها الجميع، ولا عن أسباب هذه الضمادة التي وضعها فوق رأسه، كل الذي استطاع كمال أن يقوله، موجهًا حديثه لعمه وزوجته، بعد وجوم طويل: بنتكم بخير.. بس أرجوكم تسيبونا لوحدنا شوية.. وقبل أن يعلّق الأب والأم بكلمة واحدة يتوجه كمال إلى والده العمدة قائلًا: أرجوك يا حضرة العمدة خلِّي السوّاق يوصلهم بعربيتي لحد مصر. ولا يملك عمه وزوجة عمه، إلا أن يتركا ابنتهما منال في أول يوم من صباح عرسها، وكل ما استطاع أن يقوله زكي عزّ الدين لشقيقه العمدة قبل عودته إلى القاهرة: وصيّتك منال يا حضرة العمدة.

يعود الأب والأم إلى القاهرة، وفي قلب كل منهما ألف تساؤل عن مصر ابنتهما التي لا يعرفان عنها بعد زفافها شيئًا، وقد استقرت في صدر كل منهما ألف جمرة وجمرة، وعشرات من علامات الاستفهام والتعجب.. ونهرٌ لا يجفّ من الحزن والدموع.

***

(٣١)

أشفق كمال عز الدين على عمه المريض من الحقيقة المرة التي سوف تلطمه في وجهه ومشاعره، حينما يعلم ما يعلم عن ابنته منال التي فقدت عذريتها في نزوة من العشق الحرام لا يعلم بها أحد إلا منال نفسها، ولم يتصور أن أباه العمدة، يعلم شيئًا عن تلك الحقيقة المرّة التي لطخت بها ابنة الحسب والنسب الثوب الناصع لتاريخ عائلة عز الدين بأكملها.

يرفض كمال أن تمتد يده إلى كوب الشاي الذي تقدمت بها أمه، معلنًا في وجه أبيه العمدة وأمه الحاجة فاطمة، بحقيقة ما اكتشفه الدكتور كمال من خداع أوقعته فيه عروسه وابنة عمه، ويعلن أنه مصمم على طلاقها مهما كانت الظروف، حتى لو أدّى ذلك إلى موت عمه المريض وعائلة عز الدين بأسرها؛ فتتساءل الأم في سذاجة ريفية قائلة: والدم اللي على المحارم؟ ولا يجيب كمال وينظر العمدة إلى رأس الدكتور كمال ذي الضمادة البيضاء ويقول: خلاص يا أم الدكتور.. أنا فهمت كل حاجة. وهنا يضيف كمال متعجبًا: سبحان الله.. زي ما تكون عارف باللي حصل يا آبا العمدة!!!

وهنا يهز العمدة رأسه بالإيجاب.. فيضيف كمال بحدة: ليه كده يا عمدة ليه.. طب عرَّفني .. دَرِّيني.. نوَّرني.. هيه عشان ما بنت أخوك.. عايز تشيِّلني عارها وطينها ليه يا حضرة العمدة؟ فيقاطعه العمدة قائلًا: ما أنت عارف كل حاجة؟ فيصرخ كمال: أنا عارف كل حاجة يا عمدة؟.. منين؟ حشم على ضهر إيدي؟!!

أبوه يا كمال يا ابني.. لَّما حكمت على صاحبك وعروسته.. اللي لقاها زي أنت ما بتقول بالظبط.. وقلت له خليك راجل.. ما تتخلّاش عن مراتك اللي بتحبك وبتحبها عشان راجل أُجَري واطي ما عندوش أخلاق استفرد بيها في الزريبة.. فيصرخ كمال: بس دي كانت عيِّلة صغيرة.. ما كمِّلتش سبع سنين يا حضرة العمدة!!

فيصرخ الأب: قبل ما تحكم على عروستك بالإعدام.. مش تسأل الأول عن الحقيقة يا دكتور كمال؟

فيجيب كمال بعصبية: حقيقة إيه اللي حسأل عليها يا آبا العمدة.. بعد ما شفت اللي شفته.. وعرفت اللي عرفته؟!!

فيجيب العمدة: منال بنت عمك كانت متجوّزة.. وورقة جوازها أهه.

فيخطف كمال الورقة من والده، ويقرأها في ذهول ويصرخ:
وكمان متجوزة عرفي.. يا دي المصيبة.. ومين الندل اللي عمل كده يا حضرة العمدة؟

فيجيب الأب: قابل وجه كريم.

فيصرخ كمال: في ستين داهية..

ويضيف الأب: مات شهيد في الحرب.. وهوَّ بيدافع عني وعنك.. وعن مصر كلها.

فيصرخ كمال في حدة: حرب إيه يا آبا اللي بتتكلم عنها.

فيجيب الأب: حرب ٦٧، وشهادة وفاته أهه.

كمال يخطف الورقة ويقرأها ويصرخ: يا سبحان الله.. مكتوب عليَّ أعيش النكسة مرتين.. نكسة ٦٧، ونكسة الداخلي عثمان الداخلي!!

***

(٣٢)

يصمم كمال على طلاق منال، ولا يقبل أي تبرير أو رجاء بطلب إرجاء هذا الطلاق إلى وقت آخر حتى لا تثار الأقاويل والفضائح حول سيرة ابنة عمه وعروسه، التي سوف تنتشر بكفر الشرفا، عندما يعلم أهل الكفر الذين لا تخفى عنهم خافية إلا وكشفوا سترها، ورغم التحذير الذي أنذر به العمدة ابنه الدكتور كمال بأن سمعته كطبيب كبير وأستاذ في الجامعة، واهتزاز هيبة أبيه كعمدة لكفر الشرفا، وتزعزع كيان عمه كمحام كبير، والموقف المخزي الذي سينال أخته صابرين من أهل زوجها، والعار الذي سوف يلحق بعائلة عز الدين بأسرها.

كل هذه الأسباب مجتمعة لم تقنع كمال بأن يتخلَّى عن تصميمه على طلاق عروسه وابنة عمه منال، حتى لو أصاب الدنيا كلّها في مقتل.

وفي تلك اللحظة بالتحديد يدخل (الواد) عزت عز الدين ليحمل في سعادة غامرة ورقة يهزها فوق رأسه راقصًا مهللًا ومزغردًا، وحين يسأله العمدة في حزم عن سر هذه الورقة، يعلن عزت أنها قسيمة زواج «سي الدكتور كمال والست منال» والتي تسلّمها توًّا من المأذون بعد

توثيقها.. وأضاف عزت بأنه لن يسلمها إلا بعد أن يحصل على الحلاوة من الجميع، وهنا يخطفها كمال من عزت ليمزقها تمزيقًا أمام ذهول وهلع الجميع، مما وأصابهم بالشلل والوجوم.

وفي تلك اللحظة يأتي من يدق الباب بشدة، ليسرع عزت بفتحه، حيث تدخل سيدة ريفية في هلع وفزع شديدين لتتوجه إلى الدكتور كمال وتنكب علي يديه لتقبّلها لينقذ ابنتها التي اختتنت على يد أم حسن الداية، ولكنها راحت تنزف نزيفًا شديدًا، وأنها بين الحياة والموت، لذلك فإنها قد جاءت تستنجد بالدكتور كمال لإنقاذها، ورغم ما كان يعانيه الدكتور كمال من قلق وتوتر في ذلك الوقت إلا أنه لم يستطع أن يتخاذل عن تلبية هذا النداء، ليسرع برأسه المصاب، وملابسه المتهدلة وأعصابه المتوترة لإنقاذ تلك المختونة التي أشرفت على الموت.

***

(٣٣)

في الوقت الذي يذهب فيه الدكتور كمال لإنقاذ تلك البنت المختونة مما ألمّ بها، تستطيع الحاجة فاطمة إقناع منال بالهبوط إلى الطابق السفلي من الدوار لتتناول على مضض مع عمها العمدة وزوجة عمها بعض الطعام تحقيقًا لبعض الترضية وجبران الخاطر من كل طرف للآخر، ومن الغريب في الأمر أن يجد العمدة وزوجته روحًا معنوية لا بأس بها من تقبل منال أمر طلاقها، الذي تجد أنه رد فعل منطقي من كمال ابن عمها، وأعلنت أنها لا تحمل لكمال أي حقد أو كراهية نتيجة لإصراره على طلاقها، بل على العكس فإنها تنظر إليه بعين الزوجة وابنة العم المقدرة لجميله حينما حاول أن يستر عرضها أمام الجميع بشهامته ومروءته على حساب دمه الذي نزف كثيرًا في سبيل أن يرفع رأس عروسه وابنة عمه أمام الجميع، وأنها قد تولّدت في قلبها وبين جوانحها شرارة الحب لابن العم والزوج الدكتور كمال عز الدين، وأنها لا تخشى أن تعلن ذلك للجميع، وخصوصًا كمال الذي كان يلتمس نظرة حب منها، ولكنه للأسف لن يصدّق حبّها في مثل هذه الظروف.

***

(٣٤)

وقبل أذان الفجر بقليل، يعود الدكتور كمال إلى الدوار وقد استبدّ به التعب والإرهاق، ليجد الجميع في حالة من الرضا لم يكن يتوقعه بأي حال من الأحوال، وخصوصًا عروسه منال التي اتفق معها على الطلاق، ولما طلبت منه أمه أن يغتسل، قامت منال مسرعة لتحضّر له الطست والصابونة والإبريق النحاسي وأحضرت له المنشفة، مما جعل الجميع يتعجبون من أمر منال التي لم تتعوّد على مثل ذلك، مما جعلها تنال إعجاب عمها وزوجته، إلا أن كمال نظر إليها بعين الريبة والشك، وظن أنها فعلت ما فعلت لكي تواري سوءتها، وأنها بذلك تتصرف بمنطق الأسيرة التي لا بد أن تستسلم بإرادتها لمصيرها المحتوم.

لقد وجد أبوه العمدة في ذلك فرصة لكي يطلب من أم كمال أن تحضر له بعض الطعام، لأنه لم يضع الطعام في فمه منذ ٢٤ ساعة، ولم يعترض كمال على ذلك لتسرع أمه لتحضير صينية الطعام التي تقدم للعروسين في ليلة الزفاف والتي يطلقون عليها «صينية الاتفاق».

وبعد أن يجفف كمال يديه، يتقدم كمال لكي يتناول طعامه منفردًا، ولكن الأب يأمر منال بأن تشارك كمال طعامه، وبدون أدنى مقاومة، تقوم منال لتشارك زوجها طعامه، وهنا يلوح للأم بسذاجتها الريفية سؤال مهم، ولكنه لم يأت في موعده، لتسأل ابنها الدكتور كمال قائلة: يعني ما قلتلناش يا دكتور.. عملت إيه مع البنت زينة بنت سعادات. وهنا يلقي الدكتور كمال ما كان بيده من طعام متجهمًا ويقول: أنا عملت اللي عليَّ.. وربنا ياخد بيدها.

***

(٣٥)

حتى أقبل صباح اليوم التالي لم يغمض للجميع جفن، سواء منال التي رقدت ساهرة في سرير زوجة عمها الحاجة فاطمة، ولا كمال الذي تناوم على الكنبة الاستانبولي التي اعتاد أن ينام عليها عندما كان صغيرًا، ولا العمدة والحاجة فاطمة اللذين راحا يقلّبان أمر هذا الطلاق المهين بين كمال ومنال.. إلى أن دقّ جرس تليفون العمدة، ليسرع العمدة بالرد على أخيه زكي عز الدين، ليطمئن على ابنته ليخبره عمها أنها بخير، حيث تسرع منال بالرّد على أبيها مطمئنة لهما بأنها هي وزوجها بخير وألا يشغلا بالهما بأمرها.. وبعدها يدق الباب بشدة ليدخل شيخ الخفراء.. ليهمس في أذن العمدة ببعض الكلمات ليتمتم العمدة متأثرًا: سبحان الله.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهنا يصرخ الدكتور كمال: فيه إيه يا آبا؟

فيجيب العمدة برفق: ما فيش حاجة يا دكتور كمال.. دي حكاية كده حبقى اقولك عليها بعدين.. ولكن كمال لا يطمئن.. ويحس بأن هذا الخبر يخصه من قريب أو بعيد، ولعله يتعلق بالمأذون الذي ربما قد

أصابه مكروه، وأنه يعتذر بشكل أو بآخر عن حضوره إلى دوار العمدة لإجراء الطلاق.. وانتابت كمال موجة من القلق والتوتر حاصرته من كل جانب لا يدري سببها.. ولم يستطع منها هروبًا أو فكاكًا، وهنا تناهى إلى سمعه صوت منادي كفر الشرفا صائحًا: يا عباد الله.. وحدوا الله.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. ماتت بأمر ربها.. ولا تكتر على الله.. زينة بنت المرحوم عليوة الجبَّاس.. بنت سعادات.. وكل البلد قرايبها.. والدفنة بعد صلاة الضهر في الجامع الكبير.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ينظر كمال إلى أبيه مستنجدًا به من كل هذه الأشجان التي سكنت وجدانه، ليصرخ متهدِّجًا: زينة ماتت.. فيجيب الأب وهو أكثر شجنًا: إنَّا لله وإنا إليه راجعون.. وكأنما كان الأب والابن يبحثان عن سبب ليُنفّسا عما بهما من شجن ورغبة في البكاء.. ليستلقي كل منهما على كتف الآخر ويغرقان في نوبة من البكاء.

***

(٣٦)

يأتي مأذون كفر الشرفا منزعجًا على عجل ملبيًا دعوة العمدة للحضور إلى الدوار، حيث يحيله العمدة إلى ابنه الدكتور كمال ليأخذ قرار طلاقه من زوجته وابنة عمه منال بنفسه بعيدًا عن أي تأثير من أمه أو من أبيه أو من منال نفسها بالسلب أو بالإيجاب، حيث يتودد الدكتور كمال إلى المأذون ويطلب من عزت أن يعد لمولانا كوبًا من الشربات، بعد أن يفهمه أن والده العمدة، قد أرسل إليه خصيصًا، لأن قسيمتي الزواج اللتين أرسلهما مع عزت قد سقط عليهما بعض فناجين القهوة، وأنها صارتا غير صالحتين كوثيقتي زواج، وأنه يرجو استخراج غيرهما ليسلم إحداها له والأخرى للعروس.. وهنا يرحب المأذون بذلك، حيث تنطلق زغاريد أم الدكتور وتملأ الدار برقصها وغنائها، ويصاحبها في ذلك الواد عزت الذي لا يفهم من الأمر شيئًا ويرتمي كل من منال وكمال في أحضان العمدة في شجن نبيل.

وفي الوقت الذي طلبت فيه منال من عمها العمدة أن يعمل على إخبار كمال بأمر وليدها «علي الداخلي» الذي يعيش بعيدًا عنها في

أحضان جدته وجده لأبيه عثمان الداخلي بمدينة الاقصر، يرى الحاج علي أنه ليس من الحكمة في الوقت الحاضر أن يبلغ ابنه بأمر هذا الوليد، حتى لا تتعقّد الأمور وتتشابك الأحداث بما قد يؤدي إلى تأزّم الأمور، ووعد عمّها العمدة بأنه سوف يدبّر لمنال أمر رؤية طفلها من وقتٍ لآخر، حتى يحين الوقت المناسب لإبلاغ كمال بأمر «علي» الصغير، لتجنب أي رياح عاتية قد تعصف بهذا الزواج السعيد.

***

(٣٧)

استطاعت منال أن تحتل ثقة ورعاية زوجها، وعندما حملت وذهبت لتضع حملها في المستشفى الكبير الذي يعمل به زوجها حيث كانت محل عناية ورعاية أطباء وهيئة تمريض المستشفى، وكان التفاف جميع الأهل حولها مصدر سعادة لها وللجميع، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يسبب لها هاجسًا بالقلق وعدم الطمأنينة، ما قرأته في عيني كمال وتصرفاته، اللتين تعلنان بصراحة وبدون مواربة أن القادم الجديد لا بد أن يكون ولدًا ليأخذ مكانته العلمية وعيادته الطبية، وليرث خبرته وشهرته الكبيرة في الجراحة العامة.

وتشاء إرادة الله، أنه لسبب علمي طارئ يتعلّق بوضع الجنين في بطن أمه، يقرر أطباء الولادة أن صحة المولود والأم في خطر، وأن الأمر يحتاج إلى توفيق من الله لإجراء تلك العملية القيصرية الصعبة، وتلك المعادلة الصعبة أيضًا لإنقاذ الأم والوليد، وهنا يصمم الدكتور كمال عز الدين على أن يشارك في عملية التوليد بنفسه، ليبدأ مع طاقم الأطباء والتمريض عملية من أصعب العمليات الجراحية التي أجراها في

حياته، حيث تصاب منال بنزيفٍ شديد عقب ولادتها، ولا يستطيع الدكتور كمال ولا الأطباء المشاركون إزاء هذا النزيف المستمر الذي لم ينجحوا في إيقافه إلا باستئصال رحم منال، ولما لم يكن كمال يفكر بالدرجة الأولى عند عملية التوليد إلا في إنقاذ زوجته منال، فقد همس له أحد الأطباء في أذنه بعد ذلك قائلًا: مبروك جالك بنت زي القمر.

***

(٣٨)

اكتشفت منال مدى حب ورعاية زوجها وابن عمها لها، عندما ألمت بها ظروف الوضع الصعبة والخطيرة التي تعرضت لها، كما عرفت في كمال مسحة إيمانية من الرضا بقضاء الله وقدره، خصوصًا عندما تم استئصال رحمها حفاظًا على حياتها بعد النزيف الشديد الذي ألمّ بها، وحينما فرح بميلاد تلك البنت التي وهبها الله لهما، فرضي بما قسم الله، وسماها «رضا» تيمُّنًا بعطاء الله سبحانه وتعالى.

وفي الوقت المناسب وبعد أن من الله على منال بالشفاء، اجتمع أفراد أسرة عز الدين بمنزل الدكتور كمال بالقاهرة، للاحتفال بعيد الميلاد الخامس لرضا، كما دعت منال بعض الأهل والجيران لتلك المناسبة السعيدة، وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال أصرّ الأستاذ زكي عز الدين على استضافة أخيه العمدة وأهل بيته بقصره، وانصرف الجميع فيما عدا رجل وامرأة تبدو عليهما وعلى ملابسهما السمات الصعيدية التي لا تخفى على أحد، وعجب كمال من أمرهما، كما لاحظ أنهما يصطحبان معهما طفلًا في حوالي السادسة من عمره، قد تشبث

بمنال مصممًا على عدم ترك المكان معهما، حيث تعلق بمنال تعلقًا شديدًا، وأخذ يقبل رضا بحنو شديد، وهو يعلن في إصرار أنه لن يخرج مع هذين الغريبين، ويعلن لهما: أنا مش خارج معاكم.. أنا حفضل هنا مع أمي وأختي رضا.

يعجب كمال من أمر هذا الطفل الغريب، وسرّ تعلقه بمنال وابنته رضا، لتَصْرِف منال جد وجدة علي الداخلي الصغير، وتشرح لكمال حقيقة علاقتها بهذا الطفل، وتذكره بأنه إذا كان الله قد منَّ عليه بأنثى فقد منَّ الله عليه أيضًا بالطفل، وله أن يقبله أو يرفضه، مذكِّرة له بأنها قد قبلت أن يعيش طفلها بعيدًا عنها طيلة تلك السنوات الأربع، حتى تنال ثقته، وأعلنت له في خوف شديد مصيرها ومصير هذا الطفل معلق بقراره أولًا وأخيرًا.

***

(٣٩)

يحين موسم جني البلح، فتثور في نفس كمال عز الدين ذكريات ندية وشجية في نفس الوقت، فيصطحب ابنته رضا التي أصبحت في السادسة من عمرها وعلي الداخلي الذي أصبح في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، والذي أصبح يناديه بكلمة بابا، ومنال؛ ليقضي الجميع الأجازة الدراسية بكفر الشرفا؛ حيث يكون في انتظاره جميع البنات والبنين الراغبين في إجراء عمليات الختان، ليقوم بها الدكتور كمال عز الدين في هذا الوقت من كل عام، خصوصًا بعد أن ماتت أم حسن الداية، ولم يعد هناك من يثق به أهل كفر الشرفا لإجراء عمليات الختان لبناتهن بالذات.

وفي اليوم الموعود يجدها الدكتور كمال عز الدين فرصة مواتية، لكي يقوم بعملية الختان لكل من ابنته رضا وربيبه الذي أنزله منزلة الابن علي الداخلي بالرغم من اعتراض زوجته منال اعتراضًا شديدًا علي إجراء عملية الختان لابنتها رضا، إلا أن الدكتور كمال يصمم على إجراء العملية لابنته ولغيرها من بنات القرية.

يحسّ الدكتور كمال عز الدين، وهو يعيد شريط طفولته، ويدفع ابنته رضا دفعًا لكي تشارك جميع البنات المختتنات في مشية الإوزة، حيث ترفع البنات أطراف جلابيبهن بأطراف أصابعهن من الأمام، ويسرن بين أسراب الإوز، حيث يذكره ذلك بباليه بحيرة البجع التي يحبها، فيسعده ذلك جدًّا، خصوصًا عندما يشاهد ابنته رضا تشارك هذا القطيع من البنات، في تلك المشية العجيبة، فيطلق ضحكة عالية يهتز لها كيانه بأكمله، حتى يخيل إليه أن أهل كفر الشرفا، قد شاركوه جميعًا في هذه الضحكة الهوجاء.. فيضحك من جديد.

***

(٤٠)

ولماذا لا تكون ابنته رضا طبيبة ناجحة ومشهورة؟ ولماذا لا تكون أستاذة بكلية الطب وجراحة كأبيها؟ هذا هو السؤال الذي راح يفرض نفسه على الدكتور كمال منذ ميلاد رضا حتى التحاقها بالثانوية العامة، وكأن رضا قد أرادت أن تخذل أباها بتلك النتيجة التي حصلت عليها عندما حصلت على الثانوية العامة ولم يكن مجموعها يؤهلها للالتحاق بتلك الكلية، ومن هنا استطاعت أن تحقق أملها في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، حيث كانت ميولها الفنية تؤهلها لذلك منذ نعومة أظفارها، وهذا ما مكَّنها من أن تجتاز الاختبار الفني المؤهِّل لدخول تلك الكلية بتفوق كبير، وإن كان هذا ضد رغبة أبيها، فقد وجد هذا صدى طيبًا لدى أمها التي لم تكن ترتاح إلى أن تصبح ابنتها طبيبة وأن تكون نسخة مكررة من أبيها الطبيب المشهور.

ولكن ماذا كان موقف الدكتور كمال عز الدين من ربيبه علي الداخلي الأخ غير الشقيق لابنته رضا، والذي حصل قبل ذلك على مجموع كبير يؤهله لدخول كلية الطب، وما موقف أمه من الدكتور

كمال.. لم يكن أمام الدكتور كمال إلا أن يحاول أن يخفي خيبة أمله في ابنته التي تنتسب إليه وكانت تمثل بالنسبة له الحلم والأمل في أن ترث مجد وشهرة أبيها وعيادته وخذلته في ذلك، وفي الوقت نفسه، فقد حاول الدكتور كمال أن يتحامل على مشاعره ويجامل زوجته وربيبه في استشعار نوع من السعادة لتفوق علي الداخلي، ولعل الدكتور كمال قد وجدها - رغم أنفه - فرصة مواتية لاستثمار هذا النجاح بإلحاق علي الداخلي بكلية الطب حتى يحقق له بعض الأحلام المفتقدة، ولعل حكمة زوجته منال هنا، قد أصابت هدفها عندما حاولت أن تقنع زوجها الدكتور كمال، بألا ينسى أن رضا هي أخت لعلي الداخلي، وأنها سوف تنتسب إليه بصفته الطبيب المشهور وأستاذ الطب الناجح باعتباره أخًا لها وأنها يشرفها نجاحه وشهرته.

***

(٤١)

في خطين متوازيين ولكن ليسا متساويين سار كل من علي الداخلي في دراسته وتفوقه في كلية الطب، ولكنه يختلف عن الدكتور كمال عندما عبر هذا الجسر عندما كان طالبا في كلية الطب، ففي الوقت الذي كان فيه كمال عز الدين طالبًا متزمّتًا منغلقًا على نفسه، ولم يكن يهمه في ذلك الوقت إلا أن يحقق تفوقه العلمي فقط، دون أن يشارك في الأنشطة الفنية والاجتماعية بالكلية، كان علي الداخلي صورة طبق الأصل من أبيه الشهيد، من حيث إقباله على الحياة والمشاركة الإيجابية في كل الأنشطة التي تنظمها الجامعة، وفي نفس الوقت لم يكن منكفئًا على نفسه، بل كان إنسانًا مثقفًا واعيًا بكل ما يجري حوله في وطنه وفي العالم من تيارات سياسية وثقافية وعلمية وفنية، بل استطاع علي الداخلي أن يحقق المعادلة الصعبة في أن يكون متفوقًا ومستنيرًا في نفس الوقت، وفي الوقت الذي أقلق فيه ذلك الدكتور كمال، في الوقت نفسه جعل أمه تشعر بنوع من الفخر والاعتزاز بما يفعله ابنها، فقد كان يمثل فيه صورة

طبق الأصل من تصرفات أبيه الذي استشهد دون أن تقع عينا كل منهما على الآخر.

أما رضا كمال عز الدين، تلك الفتاة ذات الألوان الداكنة كما كان يطلق عليها أساتذتها وزملاؤها بكلية الفنون الجميلة، فقد كانت رغم ذكائها وتفوقها ملتزمة في علاقتها، وخصوصًا مع الذكور من الأساتذة والزملاء رغم جمالها وأناقتها، كما كانت ملابسها وزينتها تتصف بالوقار وعدم مسايرة الموضة، التي كانت تتبع آخر خطوطها زميلاتها بالكلية، مما جعلها تشتهر بين الجميع بنوع من الخشونة خصوصًا مع الشباب، حيث كانت ترفض توددهم وإطراءهم لها، لأسباب لا يفهمها أحد، ولا رضا هي الأخرى كانت تستشعر أي نوع من الغرابة في خشونتها مع الرجال، لم تكن منال سعيدة بما آلت إليه تصرفات ابنتها رضا سواء من ناحية انغلاقها على نفسها، أو الخشونة والفجاجة التي كانت تتعمدها مع الغير، والتي كانت تصل إلى حد النفور من جنس الرجال، حيث راحت الأم تنصحها لتغير تلك التصرفات التي لا تليق بها كإنسانة فنانة ومتحضرة، دون فائدة، وقد كانت تحزن لما يطلقه عليها زملاؤها من صفات مثل المرأة الحديدية وغيرها.

أما الأب الدكتور كمال عز الدين فقد كان سعيدًا بكل ما تقوم به ابنته من تصرفات تتسم بالخشونة، وإنكار أنوثتها وعدم اهتمامها بمسايرة العصر في ملابسها سواء من ناحية الألوان والأذواق، وابتسم بينه وبين نفسه، معتزًّا بالانتصار الذي حققه حينما قام بختان ابنته في صغرها، مما جعلها تتحفظ في مشاعرها الأنثوية أمام الرجال، على عكس أمها منال التي لم تختتن على الإطلاق، ومن المؤكد أن ذلك من أهم ما أوقعها فيما وقعت فيه مع الداخلي عثمان الداخلي والذي كان ثمرته ربيبه علي الداخلي، والذي جرّ عليها وأوقعه في الكثير من المشكلات التي ما زال يعالج آثارها حتى الآن.

***

(٤٢)

تخرج كل من علي الداخلي وأخته رضا كمال عز الدين وحصل كل منهما على شهادته الجامعية، حيث يُعيّن علي الداخلي معيدًا بكلية الطب كما أراد له الدكتور كمال عز الدين، وحصلت رضا على شهادتها في الفنون الجميلة، ورغم تفوقها لم تكن ممن قد وقع عليهم الاختيار لتكون معيدة بالكلية، لأن كلية الفنون الجميلة لم تعين معيدات في تلك السنة.

وفي حفل التخرج الذي نظمه الدكتور كمال لكل من علي ورضا.. وجدها الدكتور كمال أنها فرصة مناسبة لكي يعلن خطبة ابنته رضا من الدكتور عوض العوضي أحد مدرسيها بكلية الفنون الجميلة، لوضع ابنته الأمر الواقع، حيث نصحه بعض أصدقائه من كبار الأطباء بأن يفعل ذلك، حيث أن ابنته رضا رفضت رفضًا يكاد أن يكون قاطعًا، فكرة الزواج، حيث عمل أبوها الدكتور كمال وزوجته منال وأخوها علي الداخلي على إقناعها بأن تقبل هذا الزوج المحافظ والذي يتشابه معها في كثير من الصفات، والذي اختارها لأنها تتمتع بنفس

المواصفات التي يتمتع بها، حيث تقبل على مضض بعد ذلك الزواج من عوض العوضي أملًا في حياة هنيئة وسعيدة، يتوجها بعض من الأطفال السعداء.

***

(٤٣)

يسافر العروسان محملين بالدعوات إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل، حيث تحس الأسرة بفراغ شديد، وخصوصًا الأم والأب، حيث تنقطع أخبار العروسين، ولا يقومان بالاتصال التليفوني المتفق عليه بفيلا الدكتور كمال بالقاهرة، مما يجعل الجميع يحسون بالقلق والتوتر، حيث تقوم الأسرة بالاتصال بجميع فنادق الإسكندرية دون فائدة، مما يجعل علي الداخلي يسافر إلى الإسكندرية للبحث عنهما دون فائدة، وفي الوقت الذي يحاول فيه الدكتور كمال عز الدين إبلاغ الشرطة بغياب العروسين.. يُسمع طرقٌ على فيلا الدكتور كمال، ليعود العروسان بعد غياب دام أكثر من عشرة أيام، لينفرد الدكتور عوض العوضي بالدكتور كمال، وتنفرد رضا بأمها منال.

في مساء اليوم التالي يصطحب الدكتور كمال ابنته العروس رضا رغم انفها إلى أحد زملائه من أساتذة أمراض النساء ليعلن الحقيقة المذهلة، بأن رضا ما زالت بكرًا.. والحقيقة الأخرى التي تقول بأن من قام بختان رضا قد قام بانتهاك تلك المنطقة وجار عليها، مما جعلها لا

تحس مطلقًا بأي تجاوب للقيام بدورها كأنثى وافتقاد رغبتها في مباشرة علاقتها الزوجية، ونفورها نفورًا تامًّا من مجرد التفكير في هذه العملية، وقد كان هذا الرأي أيضًا هو ما استقرّ عليه كونسلتو الأطباء الاستشاريين وأجمعوا عليه بعد ذلك.

وهنا صمم الدكتور كمال أن يلجأ إلى أحد الأطباء الاستشاريين الأمريكيين الذي كان له خبرة وشهرة كبيرة في هذا التخصص، حيث يصحب ابنته رضا أيضًا ليعرضها على هذا الطبيب الشهير، أملًا في إصلاح ما أفسده الدكتور كمال عز الدين نفسه مع ابنته، متجنيًا عليها دون أن يدري بما سوف يجلبه عليها من تعاسة وشقاء، وجوره عليها فيما اعتاد أن يفعله مع بنات الآخرين بمهارة وحرص، ملبيًا صوت الحارس الغشيم الذي جار على ابنته عندما قام بختانها دون غيرها، وهنا راح الأب يبحث عن سراب الحلول لينقذ ابنته مما حل بها دون جريرة أو ذنب.

***

(٤٤)

«ما يقطعه الأب.. لا يصله الرب»

هذا ما صرّح به الطبيب الأمريكي، عندما علم بتفاصيل ما قام به الدكتور كمال مع ابنته، خصوصًا وأن عملية البتر أو الختان التي قام بها الدكتور كمال تُمثّل - كما قال الطبيب الأجنبي - كما لو كان الدكتور كمال.. قد قام بقطع ذراع ابنته وقام بإلقاء تلك الذراع في سلة المهملات منذ عشرين عامًا، ثم عاد بعد ذلك باحثًا عمن يستطيع أن يعيد تلك الذراع إلى موضعها دون فائدة.

هنا يعود الدكتور كمال مصطحبًا ابنته من جديد إلى مصر محاولًا أن يستعين ببعض الأطباء النفسيين لإقناع رضا بمحاولة الاستمرار في حياتها الزوجية.. دون فائدة.

ليتم طلاق العذراء من زوجها، ولتلجأ رضا إلى أحد ملاجئ الأطفال، لتفتش لها عن دور جديد في الحياة والأمومة، ولتعوّض نفسها عن الدور الذي خلقت له في الوجود، ولترسم بفرشاتها مع هؤلاء الأبرياء.. حياة أكثر أملًا وأكثر إشراقًا.

***